استعطاف الحاكم فى شعر ابن زيدون

دراسة فى محاوره الفكرية وسماته الفنية

دكتور

محمد عبدالحكيم محمد الفقى

مدرس بقسم الأدب والنقد

كلية الدراسات الإسلامية والعربية

فرع البنين بالديدامون شرقية

المقدمة

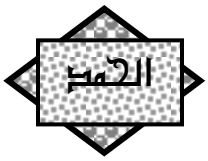

لله رب العالمين ، منزل الكتاب بلسان عربى مبين ، والصلاة والسلام على أفصح المرسلين ، سيدنا محمد الرسول الأمين ، وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين.

وبعد:

فالشعر الأندلسى يمتاز بأنه – فى الأعم الأغلب – يعبر عن العواطف العميقة، والمشاعر القلقة ، ويصور معالم الطبيعة الخلابة فى هذه البقعة الرائعة ، متجافياً عن المشكلات الفلسفية ومشاكل التفكير العميق ٠

وقد ظهر بالأندلس شعراء أفذاذ أبدعوا فى الشعر قصائد رائعات ، وظفوها فى تصوير انفعالاتهم ، وتشخيص آلامهم وآمالهم ، وابن زيدون واحد من هؤلاء الشعراء الذين جاء شعرهم مترجمًا عن عواطفهم الحزينة، ومشاعرهم الأسوانة٠

وقد قدر لهذا الشاعر أن يقع فريسة لمحنة عظيمة، ألا وهى محنة السجن، التى تسبب فى النفس آلاماً عميقة ، وتستثير فيها انفعالات عنيفة، ليذوق الذلة بعد العز ، ويعانى الضيق بعد السعة ، والاكتواء بنار التجربة ، والشقاء بجليد المحنة ، مما جعلة يحمل قيثار شعره الاستعطافى ليرتل عليه براهين براءته ، حيث كان مزعزع النفس حيناً ، عصى الدمع أحايين أخرى.

لذا وجدتنى مدفوعاً إلى مصاحبة ابن زيدون فى هذه المحنة النفسية الرهيبة التى منى بها، وتسليط الضوء على عبقريتة الشعرية الفذة التى كانت خير معين له في هذه المحنة ، موضحًا المحاور الفكرية، والسمات الفنية لشعره الاستعطافى٠

وقد اشتملت هذه الدراسة على ثلاثة مباحث، يسبقها تمهيد، وتعقبها خاتمة ، ثم ثبت بالمصادر والمراجع ٠

التمهيد: وجعلت عنوانه (ابن زيدون معالم حياة) ٠

وتحدثت فيه بإيجاز عن حياته وأسرته، وطموحه السياسي الجامح، الذى مكن للحساد والخصوم من حوله السعى بالوشاية والدسيسة فى حمل الأمير على سجنه٠

المبحث الأول : وجعلت عنوانه (الاستعطاف المدلول والتطور) ٠

وتحدثت فيه عن مدلول الاستعطاف ، وتطوره فى الشعر العربى عبر العصور إلى عصر ابن زيدون ، وماطرأ عليه من متغيرات سياسية واجتماعية أثرت تأثيرا مباشرا فى شعر الاستعطاف.

المبحث الثانى : وجعلت عنوانه (استعطاف الحاكم فى شعر ابن زيدون).

وتحدثت فيه عن المحاور الفكرية التى اكتنفت شعره الاستعطافى من حيث: نكبته واعتقاله ، ومعاناته فى سجنه ، واتخاذه من الطبيعة والصديق معينا له فى هذه اللحظات الفارقة من حياته ، وتقلبه فى استعطافه بين اليأس والرجاء الذى أسلمه إلى الفرار من هذا السجن، وتنسمه عبق الحرية.

المبحث الثالث : وجعلت عنوانه (السمات الفنية لشعرابن زيدون الاستعطافى فى الحاكم).

وتحدثت فيه عن البناء الفنى لشعره الاستعطافى من حيث : البناء اللغوى ، والصورة الشعرية ، والموسيقى .

ثم انهيت تلك الدراسة بخاتمة تضمنت أبرز النتائج والتوصيات التى أسفر عنها هذا البحث .

وأخيرا فلست أدعى الكمال لهذه الدراسة، فالكمال لله وحده، وإنما أنا بشر أصيب وأخطىء ،وللمجتهد أجران إن أصاب ، وأجر واحد إن أخطأ.

الله أسأل أن أنال الأجرين ،وأن أكون ممن يجتهد فيصيب ، إنه سميع مجيب.

الباحث

محمد عبدالحكيم محمد الفقى

التمهيد
ابن زيدون "معالم حياة"

لم يكد القرن الرابع الهجرى يؤذن بالانقضاء حتى كانت دولة بنى أمية فى الأندلس مسرحا للاضطرابات والفوضى التى أدت إلى انفراط عقدها، الذى طالما زها فى مفرق الدهر مجدا وعزة ومنعة إلى ممالك وإمارات سميت بملوك الطوائف[١].

وسط هذا المناخ المتقلب سياسيًا واجتماعيًا المزدهر أدبيًا،[٢] ولد أبوالوليد أحمد بن عبدالله بن أحمد بن غالب بن زيدون المخزومى نسبا، القرطبى مولدًا ونشأةً، الأندلسى حلاً وترحالاً، حياة ومماتاً، سنة (٣٩٤هـ) [٣] ،فى بيت تغمره أنواع المعرفة وتفوح من جنباته أرج الأدب.

كان أبوه قاضيًا مشهورًا بين قضاة قرطبة ، وعالمًا أديبًا[٤] ، عكف على تربيته ورعايته كأحسن ما يحب والد لولده، فكان أول مدرس له عمل على إفراغ ما فى ذات نفسه من طاقات علمية فى رأس ابنه الصغير، كما استحضر له الأساتذة والمربين[٥]، الذين عمدوا إلى تثقيفه وهو ما زال حدثا صغيرا، وفى سن الحادية عشرة من عمره رحل عنه بعيدا فى ديار الغربة فى بلدة ألبيرة[٦]، فلم يره إلا جثمانا يلتف حوله الشعراء ينشد فيه أحدهم راثيا :

أى ركن من الرياسة هيضا ∴ وجموم من المكارم غيضا
حملوه من بلدة نحو أخرى ∴ كى يوافوا به ثرى الأريضا[٧]

---

(١) الذخيرة لابن بسام ق١ م١ / ٣٦ تحقيق د/ إحسان عباس، ونفح الطيب للمقرى ١/ ٤٣٨، ٤٣٩ ت.د/ إحسان عباس .

(٢) نفح الطيب للمقرى ١٨٩/٤، ١٩٠ ت.د/ إحسان عباس، والبيئة الأندلسية وأثرها فى الشعر عصر ملوك الطوائف د/ سعد شلبى صـ٥، ٧، ٢١٩ .

(٣) الأعلام للزركلى ١/ ١٥١ .

(٤) مقدمة ديوان ابن زيدون صـ٢٢ ت.د/ على عبدالعظيم .

(٥) منهم أبوالعباس بن ذكوان، وأبوبكر مسلم بن أحمد بن أفلح النحوى ت. سنة ٤٣٣هـ. انظر مقدمة الديوان صـ٢٥ .

(٦) نوابغ الفكر العربى ــ ابن زيدون ــ د/شوقى ضيف.صـ١٥٠ بتصرف .

(٧) انظر مقدمة ديوان ابن زيدون صـ١٢ نديم مرعشلى ط الشركة اللبنانية للكتاب بيروت لبنان. جموم: بئر كثيرة المياه، وغيضا: من غاض الماء، الأريض: الزكى.

ثم انتقل هو وأمه إلى كنف جده لأمه أبى بكر بن محمد بن إبراهيم "الوزير الفقيه صاحب الأحكام"[١] فمسح على جراح يتمه بطيب الرعاية، مسلما إياه لآمن الأيدى وأمهرها وأعلمها فى شتى العلوم ولاسيما الشعر والأدب، فاستحق عن جدارة لقب "زعيم الفئة القرطبية"[٢] مما جعله مزهوا بآيات فخره قائلا:

وردت معين الطبع إذ ذيد دونه ∴ أناس لهم فى حجرتيه لؤاب
وأنجدنى علم توالت فنونه ∴ كما يتوالى فى النظام سخاب[٣]

ولكن نوائب الدهر لم تغفل عن الشاعر فعاجلته وهو فى ريعان شبابه بدفع جده إلى أفواه العدم قتلا على يد ابن سعيد وزير المعتد بالله الأموى سنة (٤٢٢هـ) ،ولعل هذا الحادث أثر فى نفسه فاشترك مع العاملين على إسقاط الحكم الأموى بقرطبة، ويضرب بمعوله لتقويض أركان الخلافة الأموية، وذلك انتقاما لمقتل جده، وتأسيس حكومة جهورية[٤] بقرطبة، بقيادة أبى الحزم بن جهور ، وكان للشاعر من العمر آنذاك ثمان وعشرين ربيعا٠

فى رحاب بنى جهور:

بعد أن استتب الأمر لأبى الحزم بن جهور[٥] لم ينس صديقه ابن زيدون فرفعه إلى منصب الوزارة ولقبه بذى الوزارتين ، وأدناه من ذاته موكلا إليه النظر فى أهل الذمة، واعتمده سفيرا لدى بعض ملوك الطوائف الذين جذبهم بجم أدبه، وحسن سياسته[٦]، وكلفت به تلك الدولة "حتى صار ملهج لسانها، وحل من

---

(١) قلائد العقيان لابن خاقان صـ٧٠ ٠
(٢) المغرب لابن سعيد ١/ ٦٣ ٠
(٣) ديوان ابن زيدون صـ٣٨٦ ت/ على عبدالعظيم. معين: معن الماء جرى فهو معين ـ القاموس المحيط مادة "معن" صـ١٥٩٣، حجرتيه: جانبيه، مادة "حجر" نفسه صـ٤٧٥ . لؤاب: العطش والنقرة من الأرض تمسك الماء. مادة (وأب) نفسه صـ١٨٠. السخاب: قلادة من سك وقرنفل بلا جوهر مادة "سخب" نفسه: صـ١٢٣ ٠
(٤) انظر مقدمة الديوان صـ٢٢ ـ الأسر والسجن فى شعر العرب د/أحمد مختار البرزة صـ٢٦٨ ٠
(٥) أبوالحزم جهور محمد بن جهور بن عبدة الكلبى مولى بنى أمية، كان من وزراء الدولة العامرية، قديم الرئاسة موصوفا بالدهاء والساسة، لم يغير أمرا توجبه المملكة ، حتى إنه بقى يؤذن على باب مسجده، ولم يتحول عن داره، وأحسن ترتيب الجند، فتمشت دولته، وكان حرما يلجأ إليه كل خائف ومخلوع عن ملكه، توفى سنة ٤٠٣هـ، وخلعه من بعده ابنه أبوالوليد محمد بن جهور، انظر المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد ٥٦/١ ت.د/ شوقى ضيف٠
(٦) الأسر والسجن فى شعر العرب صـ٢٦٩.

عينها مكان إنسانها"[١]، فى وقت كان فيه ابن جهور أحوج ما يكون إلى شعر ابن زيدون للدعاية له لتثبيت أركان ملكه[٢]، فاعتد منه "حساما سلولا، يرد به صعب الخطوب ذلولا"[٣] فيقول فيه:

ملك أطاع الله منه موفق ∴ ما زال أوابا إليه منيبا[٤]

على أن طموح ابن زيدون السياسى كان أكبر من أن يرضيه منصب الوزارة، ولذا عمد إلى التصريح بعد التلميح بما يعتلج فى أعماق نفسه، مذكرا مولاه بما له من يد طولى فى إقامة صرح الدولة الجهورية قائلا:

إبائى فى جواركم الذليل ∴ وحدى فى رجائكم الكليل
نصيب من ولايتكم كثير ∴ وحظ من عنايتكم قليل[٥]

فجاء رد فعل الأمير ابن جهور على غير ما يؤمله الشاعر وأخذت شقة الخلاف تتسع بينهما فضلا عما للسعاية والوشاية من أثر فى إفساد ما بينهما، فى نفس الوقت الذى يزكى فيه الخصوم حفيظة محبوبته ولادة بنت المستكفى[٦] التى انقلبت عليه بسبب ما لاحظته من مغازلته إحدى جواريها وتسمى (عتبة)؛ فاندفع مصورا إياها بصورة البغى الهلوك فى رسالته الهزلية، فتذكرت غروره وصلفه، ومر بخاطرها نقده لشعرها فصدت عنه بعد أن نالتها يده بالضرب[٧]، وإن كان قد ندم على فعلته وحاول عنها الاعتذار:

إن تكن نالتك بالضرب يدى ∴ وأصابتك بما لم أرد
فلقد كنت لعمرى فاديا ∴ لك بالمال وبعض الولد
ولئن ساءك يوم فاعلمى ∴ أن سيتلوه سرور بغد[٨]

---

(١) المغرب لابن سعيد ١/ ٦٣ .
(٢) الأسر والسجن فى شعر العرب صـ٢٦٩ .
(٣) المغرب لابن سعيد ١/ ٦٣ .
(٤) ديوان ابن زيدون صـ٣٢٧ .
(٥) نفسه صـ٣٣٢ ــ المطرب لابن دحية صـ١٦٧ .
(٦) ولادة بنت المستكفى بالله المروانى من بنى أمية بالأندلس، أديبة شاعرة، جزلة القول، حسنة الشعر، وكانت تخالط الشعراء وتساجل الأدباء، وتفوق البرعاء، كانت فى زمانها واحدة أوانها حسن منظر ومخبر، وحلادة مورد ومصدر، يعشو أهل الأدب إلى ضوء غرتها، ويتهالك أفراد الشعر والكتاب على حلاوة عشرتها، اتصفت بقلة مبالاتها، ومجاهرتها للذاتها. المطرب لابن دحية صـ٧، ٨ .
(٧) مقدمة الديوان صـ٣٧ د/ على عبدالعظيم.
(٨) ديوان ابن زيدون صـ١٧٥ .

والواقع أنهما على شدة تقاربهما في السمات الشخصية، كانا علـى أهبـة للفراق والجفاء بسبب شخصيتهما القوية العارمة.

وهنا نجح الخصوم في حمل الأمير على سجنه بتهمة اغتصاب عقار، وأنه دفعها عن نفسه إلا أنه ألقى به في غياهب السجن طيلة خمسمائة يوم[١]:

اقصـبر مـئين خمسـا مـن الايـا .. م ناهيـك عـن عـذاب الـيم[٢]

وجد فيها من العذاب والمعاناة والتضييق ــ لاسيما وهو ربيـب النعمـة، المتقلب في رياشي الغنى ــ انفراده "مع لفيف الأخلاط، ومن ضـم السـجن مـن السفلة والسقاط"[٣].

فعكف على استعطاف أبي الحزم بن جهور، واستثارة الأصدقاء الذين مـن بينهم ولي العهد أبيالوليد بن جهور[٤]، ولكن لم تفلح الشفاعات لدى أميره ابـن جهور، فأعانه صديقه ولي العهد أبيالوليد على الفرار إلى إشبيلية "ففـر فـرار الخائف، وسرى إلى إشبيلية سرى الخيال الطائف"[٥].

في رحاب بني عباد:

ما إن حل ابن زيدون بلاط المعتضد العبادي[٦] حتـى رحـب بـه أجمـل ترحيب، وشاركه في مجلسه وشرابه، وجعله مشيرا يرجع إليـه فـي معضـلات الأمور، فكان منه "كالسويداء من الفؤاد، فأشـرقت شمسـه وأنـارت، وأنجـدت محاسنه وغارت"[٧] وقد قدر الشاعر هذه اليد الطولى فصدح شاديا بآلائه:

فـي آل عبـاد حططـت رحلـي فاعصـمت .. همـي بحيـث أنافـت الأطـواد
أهـل المنـاذرة الـذين هـم الربـا .. فـوق الملـوك إذ الملـوك وهـاد

---

(١) انظر مقدمة الديوان صـ١٤ نديم مرعشلي ــ المغرب ٦٣/١.
(٢) ديوان ابن زيدون صـ٢٨٢.
(٣) الذخيرة لابن بسام ١/ ١ صـ٤٨.
(٤) أبوالوليد بن محمد بن جهور نشأ وله ولدان تنافسا في حلب الرئاسة واضطربت بهما الدولة، استغاثا بالمعتمد بن عباد ليخلصهم من المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة فأرسل لهما ابنه الظافر بعسكر فأقلع المأمون عنه وأخذ قرطبة منهم، وتوفي بشلطيش مسجونا هناك من قبـل المعتمد العبادي سنة ٤٦٢هـ المغرب ٥٦/١، ٥٧.
(٥) المغرب ١/ ٦٤.
(٦) المعتضد بالله أبيعمرو عباد بن محمد بن إسماعيل بن قريش بن عباد اللخمي قطب رحى الفتنـة ومنتهى غاية المحنة، لم يثبت له قائم ولا حصيد، ولا سلم من سيفه قريب ولا بعيد، ثـاني أمـراء الدولة العبادية بإشبيلية، ولي بعد وفاة أبيه سنة ٤٣٩هـ ، المطرب لابن دحية صـ١٢.
(٧) المغرب لابن سعيد ١/ ٦٤.

قـــوم إذا عـــدت معـــد عقيلـــة ∴ مـــاء الســـماء فهـــم لهـــا أولاد(١)

ومع هذه المكانة التى تبوأها فى رحاب المعتضد العبادى ،ظل يهفو بقلبـه إلى قرطبة ،ويحن إليها فهى بلد الحبيب والعشير:

أضحى التنائى بـديلا مـن تـدانينا ∴ ونـاب عـن طيـب لقيانـا تجافينـا(٢)

وما زال الشاعر يدارى أميره ويداوره حتى وافته المنية، واعتلى عـرش إشبيلية ابنه المعتمد وكان ذلك عام ٤٦١هـ، ولابـن زيـدون سـبع وسـتون سنة(٣).

وما إن ارتقى المعتمد فى عباد(٤) سدت الحكم حتى أدنـى منـه صـديقه وأستاذه ابن زيدون، فنعم براحة الفكر واطمئنان النفس، سيما وقد قطع المعتمـد على المفسدين والوشاة السبيل، إذ دس له أحدهم قصـيدة يعـرض فيهـا بـابن زيدون، ويحرض على قتله ومطلعها:

يـا أيهـا الملـك العلـى الأعظـم ∴ اقطـع وريـدى كـل بـاغ ينـنم
واحسـم بسـيفك داء كـل منـافق ∴ يبـدى الجميـل وضـد ذلـك يكـتم(٥)

إلا أن الأمير كان أدرى بشاعره، وأوفى لأستاذه فوقع على الرقعة:

كـذبت منـاكم صـرحوا أو جمجمـوا ∴ الـدين أمـتن والمـروءة أكـرم(٦)

قال:

كفـوا وإلا فـارقبوا لى بطشـة ∴ يلقـى السـفيه بمثلـها فـيحلم(٧)

فاهتز الشاعر لهذه الأريحية وصاغ قصيدة فى شكر أميره على ما غمـره به من آلاء نعمه ،منها:

واشـد فاجئـة الـدواهى محسـن ∴ يسـعى ليعلـق الجريمـة مجـرم

---

(١) ديوان ابن زيدون صـ٤٥٧، أعصم بفلان: أمسك به، مـادة "عصـم" القـاموس المحـيط صـ١٤٦٩ . أناف: أشرف، مادة "نيف" نفسه صـ١١٠ . وهاد: الوهدة :الأرض المنخفضة ، مادة "وهد" نفسه صـ١٤٨ .

(٢) ديوان ابن زيدون صـ١٤١ .

(٣) مقدمة الديوان صـ٢٣ نديم مرعشلى .

(٤) المعتمد بن عباد : أبوالقاسم محمد بن إسماعيل، المعتمد على الله ولد فى باجة عام ٤٣١هـ، كان شاعرا فصيحا وكاتبا مترسلا، ولى إشبيلية بعد وفاة أبيه، وامتلك قرطبة وكثيرا من بلاد الأندلس استعان بابن تاشفين أمير المرابطين على نصارى الأندلس، فأغاثه وانتصر معه على الإسبان فى موقعة الزلاقة عام ٤٧٩هـ ثم تغير عليه وأسره فى أغمات، وظل فيها أسيرا إلى أن توفى عام ٤٨٨هـ . ينظر الأعلام للزركلى ١٨١/٦، ريـات المبـرزين لابـن سـعيد الأندلسى: ٣٧ .

(٥) ديوان ابن زيدون صـ٣٠٦ .

(٦) ديوان ابن زيدون صـ٣١١ .

(٧) السابق صـ٣١٢ .

تلقى الحسود أصم عن جرس الوفا ∴ ولقصر يصيخ إلى الرقاة الأرقم
قل للبغاة المنبضين قسيهم ∴ سترون من تصميمه تلك الأسهم
ما كان حلم محمد ليحيله ∴ عن عهده دغل الضمير مذمم[1]

بهذا الود وتلك المحبة استطاع المعتمد أن يفتح قرطبة بمعونة وزيره وأستاذه ابن زيدون ،وكانت قد عزت على أبيه المعتضد وجده من قبل ،وعلى ملوك الطوائف الآخرين ٠

وفاته:

بعد حياة حافلة بالعطاء الشعرى والنثرى قضاها ابن زيدون بين بنى جهور فى قرطبة وبنى عباد فى إشبيلية، ظل وفيا لأميره المعتمد بن عباد حتى آخر نفس ٠

وعلى الرغم من ضعف الشيخوخة، ووطأة المرض أرسله إلى إشبيلية بعد فتح قرطبة لتهدئة ثورة كانت هناك، ولم يكد يتم مهمته حتى ألحت عليه العلة ففاضت روحه فى صدر رجب سنة ٤٦٣هـ، عن عمر يناهز تسعة وستين عاما[2]، تاركا وراءه تراثا أدبيا رائعا "لن يخلف الدهر مثله جمالا، وبيانا، وبراعة، وظرفا، وحلولا من مراتب البلاغة نظما ونثرا"[3] حتى سمى شعره "سلاسل الذهب" لتناسبه، وتناسقه، وقوة أسره، وجودة تعبيره، وصفاء ديباجته، وتمثله لمحنته وأحداث عصره[4]٠

(١) نفسه صـ٣١٣، ٣١٤ . دغل الضمير: فاسد القلب. مادة "دغل" القاموس صـ١٢٩١ ٠
(٢) مقدمة الديوان صـ٥٩ ــ نوابغ الفكر العربى ــ ابن زيدون صـ٢٩ بتصرف ٠
(٣) مقدمة الديوان صـ٥٩ ٠
(٤) فى الأدب الأندلسى جودت الركابى ٢٠٤ ٠

المبحث الأول
الاستعطاف المدلول والتطور

أولا : الاستعطاف "المدلول":

بالنظر فى معاجم اللغة تبين أن مادة "عطف" تشير إلى معان متعددة منها:

ما يدل على الانثناء والإمالة، فيقال: "العطف فى الشىء إذا ثنى أحد طرفيه إلي الآخر"(١)، والعطوف: الناقة تعطف على البو فترأمه(٢)، وعطف الشىء عطفا: حناه وأماله(٣).

ومنها ما يستعار للميل والشفقة إذا عدى بعلى، يقال عطف عليه، وثناه عاطفة رحم إذا أشفق عليه، وظبية عاطفة على ولدها أى رحيمة(٤)، وعطف الله قلب السلطان وبقلبه على رعيته، جعله عاطفا رحيما(٥).

ومنها ما يدل على الكبر والخيلاء كما جاء فى القرآن الكريم (مرة واحدة) قوله تعالى: ﴿ ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾(٦) أى رخى البال إذا أعرض وجفا، وصعّر بخده(٧).

ومنها ما يدل على العطف على الشىء فيقال استعطفه: سأله أن يعطف عليه(٨).

وقد دارت مادة (عطف) التى تدل على الاستعطاف فى الشعر العربى فجاءت بمعناها الذى يدل على الصفح والعفو والغفران مثل قول كعب بن زهير(٩):

نبئت أن رسول الله أوعدنى ∴ والعفو عند رسول الله مأمول(١٠)

---

(١) المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى صـ٣٣٨ .
(٢) القاموس المحيط صـ١٠٨٣ .
(٣) المعجم الوسيط ٢/ ٦٣٠ .
(٤) المفردات للراغب صـ٣٣٨ .
(٥) المعجم الوسيط ٢/ ٦٣٠ .
(٦) سورة الحج آية: (٩) .
(٧) المفردات للراغب الأصفهانى صـ٣٣٨ .
(٨) المعجم الوسيط صـ١٠٨٣ .
(٩) كعب بن زهيرمن الشراع الذين هجوا النبى ـ ﷺ ـ والمسلمين فأهدر النبى دمه، ثم رجع مستأمنا فأنشده قصيدته البردة فعفا عنه وكساه بردته . أسد الغابة لابن الأثير ١/ ٢٤٠ .
(١٠) ديوان كعب بن زهير صـ١٩ صنعة السكرى .

وقول عبدالله بن الزبعرى[١]:

فـأغفر فـدى لـك والـدى كلاهمـا ∴ زللـــى فإنـــك راحـــم مرحـــوم[٢]

وقول الحطيئة[٣] مستعطفا عمر بن الخطاب ــ ﷺ ــ قائلا:

تحـــنن علـــى هـــداك المليـــك ∴ فـــإن لكـــل مقـــام مقـــالا[٤]

ومنها ما جاء بلفظها "عطف" كما جاء فى قول أبىفراس الحمدانى[٥]:

هـــل تعطفـــان علـــى العليـــل ∴ لا بالأســـــير ولا القتيـــــل[٦]

ومن هنا نجد أن مادة (عطف) بمعناها وبلفظها لا تخرج عن معانى الصفح والعفو والرحمة والشفقة٠

وهى بذلك تأتى متوائمة مع ما اصطلح عليه النقـاد فـى تحديـد مـدلول الاستعطاف بقولهم: "والاستعطاف قول من الشـعر يبثـه الشـاعر إلـى الآخـر استعطافا واعتذارا عما تورط فيه من إساءة كالهجاء مثلا، أو ما نسب إليه زورا

---

(١) عبدالله بن الزبعرى كان من شعراء قريش فى الجاهلية ومن أشد الناس عداوة للرسول ــ ﷺ ــ والمسلمين بعد فتح مكة عاد واعتذر إلى الرسول توفى سنة ١٥٢هـ . أسـد الغابـة فـى معرفة الصحابة لابن الأثير ٣/ ١٠٣ ٠

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٤٢٠ ٠

(٣) الحطيئة: جرول بن أوس، ويكنى أبا مليكه، كان متين الشعر شرد القافية، دنئ النفس، جعلـه ابن سلام الجمحى فى الطبقة الثانية ، أسلم بعد وفاة النبى (ﷺ) إلا أنه اتهم برقة دينه، تـوفى ٥٩هـ٠انظر طبقات فحول الشعراء لابن سلام ١/ ١٠٤، الأعلام للزركلى ٢/ ١١٨، مقدمة ديوانه صـ٥ ــ ٨ ٠

(٤) ديوان الحطيئة صـ١٠٩ عناية وشرح حمدو طماس٠

(٥) أبوفراس الحمدانى: الحارث بن سعيد الحمدانى شاعر وفارس أسـرته الـروم فـى إحـدى المعارك ،ولبث فى الأسر سبع سنوات، توفى عام ٣٥٧هـ . وفيات الأعيان ٢/ ٥٨ ٠

(٦) ديوان أبى فراس صـ٣١ المطبعة السليمانية . بيروت ٠

وبهتانا بحق ملك أو ذى سلطان، بباعث الوشاية أو الغيرة أو الحسد، أو ما أشبه ذلك"[١].

وقد قرنه بعضهم بالاعتذار[٢]، إلا أن كل شعر فى الاعتذار يدخل فى الاستعطاف وليس العكس.

فهناك الكثير من أشعار الاستعطاف تخلو من الاعتذار، وكأن الشاعر يتناسى ذنبه ليفتح صفحة جديدة تخلو من التذكير بالماضى.

وقد عد الاستعطاف غرضا من أغراض الشعر العربى[٣]، فما من عصر من عصور الأدب إلا وفيه شاعر أو أكثر نظم الشعر استعطافا أو اعتذارا عما تورط فيه من إساءة، أو نسب إليه زورا وبهتانا[٤] ، هذا بالنسبة للمدلول، أما عن تطور ظاهرة الاستعطاف فى الشعر العربى قبل عصر ابن زيدون فهذا ما ستفصح عنه الفكرة الثانية.

ثانيا: الاستعطاف "التطور" :

بتتبع ظاهرة استعطاف الحاكم فى الشعر العربى عبر العصور إلى عصر ابن زيدون، وجد أن هناك الكثير من الشعراء الذين ألمت بهم المحن، وحيكت حولهم المؤامرات، والوشايات، ودارت حولهم الشبهات، ووقعوا هم أو ذووهم فى غياهب السجون، فلجأوا إلى أشعارهم يتخذونها وسيلة لاستعطاف الحاكم والاعتذار له، متبرئين مما ألصق بهم زورا وبهتانا بباعث الوشاية أو الغيرة أو الحسد، وما أشبه ذلك .

ففى العصر الجاهلى:

نجد أن أول من افتتح هذا اللون هو علقمة الفحل[٥] فى استعطافه للحارث الغسانى لإطلاق سراح أخيه (شاس) الذى لا ينبغى أن يحرم من آلاء الحارث

---

(١) الأدب العربى فى الأندلس د/ عبدالعزيز عتيق صـ٢٣٠ .
(٢) نهاية الأرب للنويرى ٣/ ٢٥٨ .
(٣) الجامع فى تاريخ الأدب حنا الفاخورى صـ٨٠١ .
(٤) الأدب العربى الأندلسى صـ٢٣٠ .
(٥) علقمة الفحل: هو علقمة بن عبدة شاعر جاهلى من الطبقة الأولى جعله ابن سلام فى الطبقة الرابعة كانت له مساجلات مع امرئ القيس توفى سنة ٦٠٣م.طبقات فحول الشعراء لابن سلام ١٣٩/١.الأعلام ٢٣٧/٤ .

ونعمه، وفيض كرمه الذى عم الناس جميعا، مستميلا له بما لاقاه من صعاب تجشمها فى رحلته الشاقة إليه:

إلى الحارث الغسانى أعملت ناقتى ∴ لكلكلها والقصرين وجيب
لتبلغنى دار امرئ كان نائيا ∴ قد قربنى من نداك قروب
إليك أبيت اللعن كان وجيفها ∴ بمشتبهات هو لهن مهيب
وفى كل حى قد خبطت بنعمة ∴ فحق لشاس من نداك ذنوب
فلا تحرمنى نائلا عن جناية ∴ فإننى امرؤ وسط القباب غريب

فقال الحارث الغسانى: "نعم وأذنبة، وأطلق له شاسا أخاه وجماعة من أسرى بنى تميم"(١).

إلا أنه لم يبلغ بشعره الاستعطافى من الشهرة والذيوع ما بلغه شعر النابغة الذبيانى(٢)، مما جعل النقاد يجعلون النابغة رائد شعر الاستعطاف والاعتذار(٣).

ها هو ذا يعبر بأسلوب رفيع ،وتصوير بديع عما يعانيه من ألم نفسى رهيب ، بفعل الوشاة الذين أفسدوا ما بينه وبين سيده النعمان بن المنذر، بسبب علاقته بالغساسنة ومدحه لهم، فيقول معتذرا ومستعطفا:

أتانى أبيت اللعن أنك لمتنى ∴ وتلك التى أهتم منها وأنصب
فبت كأن العائدات فرشن لى ∴ هراسا به يعلى فراشى ويقشب(٤)

فهو شديد الحرص على علاقته بسيده ونيل حبه ورضاه، وهذا الأمر جعله مهتما شديد الإعياء لما لحقه من مشقة نفسية بسبب لوم النعمان له وعتبه عليه، مما تجاوز بصورته التعبيرية، كل معانى السطحية إلى المعانى الإيحائية التى تجعل النفس تذهب كل مذهب فى تصوير آلامه العظيمة وكأنه على فراش المرض الذى يفرش بالشوك مرة بعد مرة لتتجدد الآلام وتعظم الأهوال، فغضب

---

(١) العمدة لابن رشيق ١/ ٥٧ .
(٢) النابغة الذبيانى : أبو أمامة زياد بن معاوية بن ضباب الذبيانى شاعر جاهلى من الطبقة الأولى، اتصل بالغساسنة والمناذرة مادحا، وكانت تضرب له قبة فى سوق عكاظ فتقصده الشعراء فتعرض عليه أشعارها توفى سنة ٦٠٤م ، مقدمة الديوان صـ٥ وما بعدها، والأعلام ٣/ ٥٤، طبقات فحول الشعراء ١/ ٥٦ .
(٣) نهاية الأرب للنويرى ٣/ ٢٦١ .
(٤) ديوان النابغة صـ١٩ شرح حمدو طماس.

النعمان عليه جعله لا يحس غير الجحيم فى كل شىء، إلى الحد الذى تحول معه تلطف العائدات بالنسبة له إلى تعذيب بشع شنيع.

ثم يحاول جاهدا دفع التهمة عن نفسه، وقطع الشك على النعمان فيما سوف يقوله، وأن ما بلغه إنما هو بفعل الدسيسة والغش والكذب:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة ∴ وليس وراء الله للمرء مذهب
لئن كنت قد بلغت عنى خيانة ∴ لمبلغك الواشى أغش وأكذب[1]

ثم يظهر معانى الذلة والخضوع جاعلا حالته لا تعدو أحد أمرين:

إما أن يظلم النعمان، وحينئذ ما هو إلا عبد ظلم سيده، وهذا ليس بالكثير على العبد، ولا بالقليل على السيد، وإما أن يرضى عليه ويصفع عنه ،وهو أهل لهذا الخلق النبيل:

فإن أك مظلوما فعبد ظلمته ∴ وإن تك ذا عتبى فمثلك يعتب[2]

وهو بذلك يحاول أن يستل كل ما فى نفس النعمان من معانى الضيق والحنق عليه، فيشعره بالقوة المطلقة، والبطش الشديد باعتبارهما من لوازم أبهة الملك وسطوته، فلمس بذلك أوتار نفسه المغرورة، وكان له ما أراد من العفو وعلو المنزلة.

وفى عصر صدر الإسلام:

لم يجد بعض شعراء الشرك مفرا من الإنابة إلى الله، والرجوع إليه مؤمنين موحدين بعد تلك الحرب الضارية التى شنوها على الإسلام والمسلمين، وبعد أن حقق الإسلام فى صراعه معهم انتصارات مدوية فى ساحات المعارك الحربية والكلامية.

---

(١) ديوان النابغة الذبيانى صـ١٠ شرح حمدو طماس.
(٢) نفسه صـ٢٠ .

وبإنابة بعضهم إلى الإسلام وهدايته، كان لابد من إظهار الندم على ما كان منهم فى حق الإسلام والمسلمين، معتذرين ومستعطفين ٠

ها هو ذا أنس بن زنيم[١] يبدى أسفه واعتذاره واستعطافه للنبى ــ ﷺ ــ والتحلل مما قاله ركب خزاعة عنه من هجائه له ﷺ ، فأهدر دمه:

تعلم رسول الله أنك مدركى ∴ وأن وعيدا منك كالأخذ باليد
تعلم رسول الله أنك قادر ∴ على كل صرم متهمين ومنجد
تعلم بأن الركب ركب عويمر ∴ هم الكاذبون المخلفو كل موعد
ونبوا رسول الله أنى هجوته ∴ فلا حملت سوطى إلى إذن يدى[٢]

فإذا كان أنس بن زنيم يعلم أن يد النبى ــ ﷺ ــ قد تطوله فى أى وقت وفى أى مكان، فإن كعب بن زهير كان أشد خوفا ووجلا من صاحبه ،حيث ضاقت عليه الأرض بما رحبت ،واسودت الدنيا فى عينيه بعد أن أهدر النبى ــ ﷺ ــ دمه ، فلم يجد أمامه إلا باب التوبة والاعتذار والاستعطاف، مؤملا فى عفوه ــ ﷺ ــ، ومصورا حالته النفسية الرهيبة التى لو وقف فيها أعظم الحيوانات قوة وجثه لظل ترتعد منه الفرائص، حتى تهدأ نفسه بالعفو والصفح، فيقول:

نبئت أن رسول الله أوعدنى ∴ والعفو عند رسول الله مأمول
مهلا هداك الذى أعطاك نافلة الـ ∴ ـقرآن فيها مواعيظ وتفصيل
لا تأخذنى بأقوال الوشاة ولم ∴ أذنب ولو كثرت فى الأقاويل
لقد أقوم مقاما لو يقوم به ∴ أرى وأسمع ما لو يسمع الفيل
لظل يرعد إلا أن يكون له ∴ من الرسول بإذن الله تنويل[٣]

إلى أن قال:

إن الرسول لسيف يستضاء به ∴ مهند من سيوف الله مسلول[٤]

---

(١) أنس بن زنيم شاعر جاهلى هجا النبى ــ ﷺ ــ فأهدر دمه، فلما كان يوم الفتح جاءه معتذرا ، فصفح عنه. أسد الغابة فى معرفة الصحابة ٢١٢/٦ وما بعدها، باب الهمزة مع النون٠

(٢) السيرة لابن هشام ٢/ ٤٢٤ . تعلم: أعلم، وتعالم الجميع: علموه. مادة (علم) القاموس صـ١٤٧٢. صرم: بيوت مجتمعة "مادة صرم" القاموس صـ٤٥٨، متهمين: ساكنين فى التهام، وهى الأرض المتوجهة إلى البحر، وتهام: واد باليمامة. مادة (تهم) القاموس صـ١٤٠٠ . المنجد: الذى يسكن النجد: المرتفع من المكان. مادة (نجد) القاموس صـ٤١٠

(٣) ديوان كعب بن زهير صـ١٩ ــ ٢١ صنعة السكرى ٠

(٤) نفسه صـ٢٣ ٠

وقد كان لهذه القصيدة وقعها الحسن على نفس النبى ــ ﷺ ــ وكان جزاء كعب الصفح والعفو، والأمن بعد الخوف، وبردة النبى ــ ﷺ ــ التى ظل أبناؤه يتوارثونها من بعده.

وهذا ليس بجديد على نبى الرحمة ،فقد عفا وصفح عمن هم أشد بطشا وفتكا من كعب[١]، فالإسلام يجب ما قبله، وخير الخطائين التوابون.

وفى العصر الأموى:

أخذ الشعر اتجاهات متعددة نظرا لما طرأ على هذا العصر من تغيرات سياسية واجتماعية وثقافية، فقد ظهرت الكثير من الحركات المعارضة لحكم بنى أمية فى الشام، وعبدالله بن الزبير فى العراق، "لكن القائمين على الأمر استطاعوا أن يكبحوا جماح الثائرين، خائضين إلى ذلك بحارا من الدماء ،متخذين من ذلك نكالا لكل ثائر يحاول الثورة على نظمهم السياسية والاجتماعية"[٢] مما أدى إلى كثرة شعر الاستعطاف والاعتذار الذى لهج به الشعراء طلبا للصفح والعفو، عما صدر منهم، أو عما ألصق بهم.

وقد كان لشعر الاستعطاف أثره فى نفوس الولاة والأمراء حيث حرك فى صدورهم نوازع الرحمة والرأفة، ها هو ذا الحجاج بن يوسف الثقفى الذى اشتهر بالغلظة والقسوة ،وبخاصة مع الخوارج حيث كان يشتد عليهم، ويعمل على استئصال شأفتهم، وقل أن تأخذه بهم رأفة، يرق قلبه لقول نسوة استعطفته فى خارجى من أقاربهم قدم إليه ليقتله، حيث قالت إحداهن:

أحجاج لو تشهد مقام بناته ∴ وعماته ينددبن بالليل أجمعا
أحجاج إما أن تمن بتركه ∴ علينا وإما أن تقتلنا معا
أحجاج لا تفجع به ونسائه ∴ ثمانا وعشرا واثنتين وأربعا
فمن رجل دان يقوم مقامه ∴ علينا فمهلا لا تزدنا تضعضعا[٣]

---

(١) مثل:عبدالله بن الزبعرى، وأبىسفيان بن حرب، وأنس بن زنيم، وغيرهم، وقد نالوا عفوه ﷺ .
(٢) تاريخ الأدب العربى العصر العباسى الأول د/ شوقى ضيف صـ٩ .
(٣) البداية والنهاية لابن كثير ١٣١/٩. تضعضعا:التعضوض:الداهية، والزمن الشديد، والظلم، مادة "عضض" القاموس صـ٨٣٥ .

فمن عليه الحجاج إشفاقا على أولئك النسوة الضعاف، فقد حركت هذه الأبيات الشعرية الباكية نوازع الرحمة والرأفة فى صدره، فهو على الرغم من غلظته وقسوته يرق إذا أحسن المتكلم استعطافه ٠

أما الأمير عمر بن عبدالعزيز فلم تنفع معه توسلات الشاعر الأحوص[١] المنفى بدهلك واعتذاره، واستعطافه، وبخاصة إذا كان الأمر يتعلق بحرمة المسلم، والنيل من أعراض المسلمين ، فحرمة المسلم عظيمة عند الله تعالى ، ولابد من حمايتها من اللاهثين العابثين، ولو بلغ الأمر بنفيهم حيث لا حلم ولا دين يردع عن ذلك، فيقول الأحوص مستعطفا ومسترحما إياه:

ألست أبا حفص هديت مخبرى ∴ أفى الحق أن أقصى ويدنى ابن أسلما
ألا صلة الأرحام أدنى إلى التقى ∴ وأظهر فى أكفائه لو تكرما
فما ترك الصنيع الذى قد صنعته ∴ ولا الغيظ منى ليس جلدا وأعظما
وكنا ذوى قربى لديك فأصبحت ∴ قرابتنا تديا أجد مصرما
تدارك بعتبى عاتبا ذا قرابة ∴ طوى الغيظ لم يفتح بسخط له فما[٢]

"فلما كلم فيه قال أليس هو القائل:

الله بينى وبين قيمها ∴ يهرب منى بها وأتبع

والله لا أرده ما كان لى سلطان) [٣] حتى يكون عبرة لكل من تسول له نفسه الجرأة على محارم الله، ويبقى منفيا فى دهلك، ولا ينقذه مما هو فيه إلا وفاة عمر بن عبدالعزيز، وانتهاء الأمر إلى يزيد ابن عبدالملك ٠

وفى العصر العباسى:

اختلفت دوافع الاستعطاف نظرا للمتغيرات الكثيرة التى طرأت عليه، مما أضفى على الحياة عامة والأدب خاصة لونا من التنوع، نتيجة للفتوحات والثورات وامتزاج الثقافات وحركة الترجمة، التى ألقت بظلالها على الشعر إن

---

(١) الأحوص: أبوعبدالله بن محمد الأنصارى، كان معاصر لجرير والفرزدق من سكان المدينة، لقب بالأحوص لضيق فى مؤخرة عينيه، نفى إلى دهلك، وأطلقه يزيد بن عبدالملك مات سنة ١٠٥هـ الأغانى ٤/ ٢٥٠ ٠

(٢) شعر الأحوص صـ١٢١ جمع عادل سليمان . ابن أسلما: هو يزيد بن أسلم مولى عمر بن الخطاب تابعى ثقة من أهل الحديث. الأغانى ٤/ ٢٨٤ ٠

(٣) الأغانى ٤/ ٦٤ ٠

فى جانب الثورات أو فى جانب الانفتاح والتطور الفكرى، والتشرب من حضارات الأمم الأخرى، ويكفى على ذلك أن المستقرئ شعر هذا العصر "يقطع بأنه لا يوجد شاعر فى هذا العصر إلا وقد أذعن للثقافات المتنوعة، واتخذ منها غـذاء لعقلـه وقلبه، وكأن الشاعر لا يستطيع منها فكاكا ولا خلاصا"(١).

بدأ الاستعطاف يأخذ بالاتساع والتنوع فمن شاعر سجين يلـتمس إطـلاق سراحه، إلى شاعر يلتمس العفو لغيره، إلى امرأة فقيرة معدمة تسـتعطف ولـى الأمر ليسد رمقها، ويجبر كسرها (٢).

ومن أبرز شعراء الاستعطاف فى هذا العصر الشاعر "أبوفراس

الحمدانى"(٣) الذى ظل أسيرا فى أيدى الروم حوالى سـبع سنوات،أرسـل خلالها إلى أميره سيف الدولة قصائد حارة مليئة بالشكوى والعتاب والاستعطاف، ليخلصه من سجنه فالإمارة أحوج ما تكون إليه.

إلا أنه كان "يرق فى شكواه، ويسمو فى استعطافه حتى ليظن أنـه يرثـى نفسه رثاء مقنعا"(٤) مما يرغبه فى العطف عليه، والمسارعة إلى فدائه، حتـى لا يعدم صفاته الحسنة ، وبطولاته الحربية ، وما دام الشـاعر كـذلك لا يفوتـه أن يظهر الإباء وعزة النفس، لذا، فهو يتوجه إلى الله وحده بالدعاء طالبا منه العون على بلواه، والفرج من مصيبته، فيقول:

يـا فـارج الكـرب العظيـم ∴ وكاشـف الخطـب الجليـل
كـن يـا قـوى لـذا الضعيـف ∴ ويـا عزيـز لـذا الـذليل(٥)

وحتى لا يقطع حبله مع سيف الدولة، فإنه يرجو من ربه أن يقربه منه:

قرّبـه مـن سـيف الهـدى ∴ فـى ظـل دولتـه الظليـل
الله يعلـم أنـه ∴ أملـى مـن الـدنيا وسـولى

(١) تاريخ الأدب العربى العصر العباسى الثانى د/ شوقى ضيف صـ١٩٥ .
(٢) المستطرف فى كل فن مستظرف الأبشيهى صـ٣٠٠ ، الكلكل: الصدر. القاموس صـ١٣٦٢ .
(٣) أبوفراس: الحارث بن سعيد بن حمدان الحمدانى ، ابن عم سيف الدولـة، شـاعر وفـارس، أسرته الروم فى إحدى المعارك، ولبث فى الأسر سبع سنوات، قتل عام ٣٥٧هـ. الأعـلام للزركلى ١٥٦/٢ .
(٤) فنون الشعر فى مجتمع الحمدانيين د/مصطفى الشكعة صـ٢٦٢ .
(٥) ديوان أبى فراس الحمدانى صـ٢٧٣ شرح خليل الدويهى .

لا بالغضـــــوب ولا الكـــــذو ∴ ب والقطـــــوب ولا الملـــــول[1]

ثم يمضى الشاعر إلى عتاب سيف الدولة، على نحو رقيق، مذكرا إياه بالعلاقة الحميمة بينهما، ومستصرخا إياه أن يهب لنجدته، وراجيا منه أن يتجاهل الأقاويل المغرضة، فيقول:

يـــا عـــدتى فـــى النائبـــا ∴ ت وظلتـــى عنـــد المقيـــل
أيـــن المحبـــة والـــذما ∴ م ومـــا وعـــدت مـــن الجميـــل؟!
أجمـــل علـــى الـــنفس الكريـــ ∴ ـــمة فـــى والقلـــب الخمـــول
أمـــا المحـــب فلـــيس يصـــ ∴ ـــفى فـــى هـــواه إلى عـــذول
يمضـــى بحـــال وفائـــه ∴ ويصـــد عـــن قـــال وقيـــل![2]

وبعد سنوات يطلق سراحه من حياة حملت معها الأحزان من جهة،

وتفتقت قريحته عن شعر جميل، لم يكن ليبلغه لولا تجربة الأسر من جهة أخرى ٠

بعد معايشة ظاهرة الاستعطاف وتطورها فى الشعر العربى عبر عصوره المختلفة، ومعايشة شعرائها فى أعز لحظات حياتهم، تبين أنها تسير على ما سار عليه النابغة الذبيانى فى استعطافه للنعمان بن المنذر من طلب العفو والصفح، والتعريض بالوشاة والمفسدين، وانعدام العائل، والمعاناة فى الغربة بعيدا عن الأهل وفلذات الأكباد ٠

وكان الحاكم بين أمرين: إما أن يعفو ويصفح مثلما فعل معظمهم، وإما أن يرده خائبا صفر اليدين ،وبخاصة إذا كان الأمر يتعلق بحرمات المسلمين وأعراضهم ،كما فعل الخليفة الراشد عمر بن عبدالعزيز مع الأحوص، ليكون عبرة لغيره، وزاجرا لكل من تسول له نفسه فى التطاول على حرمات الله ٠

كذلك تنوعت بواعث الاستعطاف عن ذى قبل ،كما حدث عند شعراء العصر العباسى تبعا لتنوع الثقافات ، والتطور الحضارى الذى طرأ على هذا العصر،وإن جاء بعضه متصلا بالعتاب كما حدث فى استعطاف أبىفراس لسيف الدولة الحمدانى، وكان للوشاة والمفسدين حضور واضح فى أشعارهم الاستعطافية، التى كانت بمثابة الذخيرة التى استفاد منها ابن زيدون فى شعره الاستعطافى رغم اختلاف الظروف السياسية والاجتماعية عن ذى قبل، كما سنوضح فى المبحث التالى ٠

---

(١) ديوان أبى فراس صـ٢٧٤ ٠
(٢) نفسه صـ٢٧٤ ٠

المبحث الثانى
استعطاف الحاكم فى شعر ابن زيدون

بعد القراءة المتأنية، والمعايشة الطويلة لشعر ابن زيدون من خلال ديوانه، تبين أن استعطاف الحاكم فيه كان له حضور قوى، حيث صور الشاعر معاناته وآلامه فى سجنه بعد نكبته واعتقاله، وتذوقه آلام الوحدة، وعذابات السجن، فى تجربة شعرية صادقة، مفعمة بالمشاعر والأحاسيس الجياشة ٠

وهذا ما سنوضحه إن شاء الله فى المحاور التالية:

أولا: "نكبته واعتقاله":

كان ابن زيدون رجل ثورات، أسهم فى ثورات عصره، وبخاصة فى تقويض الحكم الأموى، وتولى أرقى المناصب لابن جهور، وابنه الوليد، ولعب الحب دورا خطيرا فى حياته، عندما أحب زهرة البيت الأموى ولادة ابنة الخليفة المستكفى، وغشى ندوتها مدلا بمكانة أسرته، ووفرة ثروته، وعلو منزلته فأحبته وأقبلت عليه، دفعه طموحه إلى منازلة الحوادث، ومصارعة الأيام فلم يشأ أن يداهن أو يسالم، فأصبح ــ بفضل كفاحه ــ ذى مكانة عالية، ومنزلة رفيعة فى قومه، فتعرض من أجل ذلك إلى حسد الحاسدين، وحقد المنافسين، يتآمرون عليه، ويتربصون به الدوائر، فأصابه ما أصابه من السجن والتعذيب، والتشريد والمعاناة[١]٠

وساعدهم فى ذلك نفسه المتعطشة للمجد، وتسويلها له بالانقلاب على أبىالحزم ابن جهور، واستخلاص الأمر لنفسه، مستغلا ضيق الناس وتذمرهم من حكم أبى الحزم، الذى ساهم ابن زيدون فى صنعه، وأسهم فى رفعه[٢]٠

ولعل هذا هو أرجح الأسباب لاعتقاله[٣] "ففى عصور الاضطراب السياسى، والقلق الاجتماعى، تضيق الصدور وتظلم القلوب، ويظن بعض الناس ببعض الظنون، ومن هنا يشتط القوى فى العقوبة، ويتمادى الضعيف فى التوبة، ويمعن

---

(١) ابن زيدون عصره وحياته من شعره د/ على عبدالعظيم صـ١٢٧ ٠
(٢) ملامح الشعر الأندلسى عمر الدقاق صـ١٣٥ ٠
(٣) وإن كانت هناك أسباب أخرى ذكرها بعض الباحثين مثل: اتهامه بالاستيلاء على عقار لبعض مواليه بعد وفاته، ومنهم من جعل حبسه بسبب هجائه لابن عبدوس وزير ابن جهور، ومنافسه فى حب ولادة بنت المستكفى . انظر: الحضارة العربية الإسلامية فى الأندلس . د/ سلمى الجيوشى ١/ ٥١٤، وابن زيدون د/ شوقى ضيف صـ٢٣ ٠

فى الاعتذار والاستعطاف"[١]، والحكام فى هذه الحالة "لا يتورعون عند الضرورة عن ضرب أقرب المقربين إليهم، ولو كانوا أخوة لهم بل أبناء"[٢].

وابن زيدون كان واحدا من هؤلاء الذين سقطوا من الثريا إلى الثرى، فعلى الرغم من كونه علما من أعلام دولة بنى جهور لم يتورع الحاكم عن سجنه بسبب وشاية "أهداها كاشح، ونبأ جاء به فاسق"[٣] وكان ذلك فى الفترة بين محرم سنة (٤٣٢هـ) وشعبان سنة (٤٣٣هـ) [٤].

لبث ابن زيدون فى سجنه حوالى خمسمائة يوم ــ أى حوالى عام ونصف تقريبا ــ أشار إليها فى شعره بقوله من قصيدة يستعطف فيها ابن جهور علّه يرق لحاله ،ويصفح عنه، فيقول:

أفصبر مئين خمسا من الأيا ∴ م ناهيك من عذاب أليم[٥]

حيث كان لهذه الأيام أثرها العميق فى نفسه ،فقد أصابته بأمراض أدمت جروحه قبل أن تلتئم، واجتمع عليه فى سجنه المرض والوحشة، فما يجرؤ زائر أن يعوده، وطالما خفف العائد ألام المريض، بل أصابته نار الظلم التى أحالة جنة أمنه واطمئنانه إلى هشيم، معبراً عن ذلك بأسلوب رائع فى الخيال، ودقة متناهية فى التصوير:

ومعنّى من الضنى بهنات ∴ نكأت بالكلوم قرح الكلوم
سقم لا أعاد فيه وفى العا ∴ د أنس يفى ببرء السقيم
نار بغى سرى إلى جنة الأم ∴ ن لظاها فأصبحت كالصريم[٦]

فقد اكتنفته الظلمة وراء الجدران، واكتوى بنار التجربة، فلجأ إلى شعره مردداً عليه دلائل براءته، دافعا الأمر للوشاية الكاذبة، والدسيسة الخادعة.

---

(١) البيئة الأندلسية وأثرها فى الشعر عصر ملوك الطوائف د/سعد شلبى صـ٤٩٢ .
(٢) ملامح الشعر الأندلسى عمر الدقاق صـ١٣٥ .
(٣) الذخيرة لابن بسام ق١ م١ / ٣٤٠ .
(٤) مقدمة الديوان صـ٤٣ .
(٥) ديوان ابن زيدون صـ٢٨٢ .
(٦) نفسه صـ٢٨٢، ٢٨٣، معنى: متعب، الضنى: المرض، الكلوم: الجروح،الصريم الزرع المحصود،أو الليل المظلم .

ثانيا: استعطافه والتعبير عن معاناته فى سجنه:

١ـ نفى التهمة عن نفسه ونسبتها للوشاة:

بعد أن أوصد باب السجن على ابن زيدون تفرق عنه الجميع ولم يبق لـه أنيسا فى وحدته غير شعره، يغرد به من سجنه متقلبا بين الخنـوع والخضـوع تارة، والتمرد والاستعلاء تارة أخرى، شاكياً باكياً حيناً، مرتفعاً متسـامياً أحيانـاً أخرى، معبراً عن ذاته المنصهرة بنار التجربة القاسية، لعل ابن جهور يرق لـه، ويأسى لحاله، فيصفح ويعفو، معتمداً أول ما اعتمد على عرض حجتـه، ودفـع التهمة عن نفسه، والظهور بمظهر الإنسان البرئ الذى ألصقت به التهمة ظلمـاً وعدواناً ، متكئاً على المقابلة التى تؤكد المعنى وتبرز نقيضه فى ذهن المتلقـى، وتثير فى النفس نوعاً من الإيقاع الموسيقى الناتج عن هذا التقابل:

مـا للـذنوب التـى جـانى كبائرهـا ∴ غـيرى يحملنـى أوزارهـا وزْرى
مـن لم أزل مـن تأتيـه علـى ثقـة ∴ ولم أبـت مـن تجنيـه علـى حـذر[1]

فإن كان الأمير قد انقلب عليه وحمله أخطاء لم يجنها، وترك الجناة وبادره بالعقاب، فإنه ما زال واثقا من رفقه، آمنا من عقابه.

وما حدث له إنما كان بفعل الوشاة الذين نسبوا إليه أفعـالا لـم يقترفهـا، ومعايب لم يجتنيها ،واتهموه ظلما وبهتانا كما اتهم أبناء يعقوب الذئب بـافتراس أخيهم يوسف ــ عليه السلام ــ وجاءوا على قميصه بدم كذب، ولكن إذا جـادت الآمال برضاك عنى، واهتزت أريحتك بالسماح والصفح فلـن أخشـى ملامـاً أو عقاباً، متكئاً على منحى تصويرى نفسى يعبر عما فى أغوارها ، وجـاعلاً أمـام عينيه قوله سبحانه: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ ﴾[2] فيقول:

كـان الوشـاة وقـد منيـت بـإفكهم ∴ أسـباط يعقـوب وكنـتَ الـذيبا
وإذا المنـى بقبولـك الغـض الجنـى ∴ هـزت ذوائبهـا فـلا تثريبـا[3]

---

(١) ديوان ابن زيدون صـ٢٥٥ .الوزَر: الظهير أو المعين.
(٢) سورة يوسف آية : ٩٢ .
(٣) ديوان ابن زيدون صـ٣٣٠ ، الإفك: الكذب، السبط: ولد الولد، المراد هنا أبناء يعقوب كمـا ذكر الشاعر (مادة سبط) القاموس / ٨٦٤، التثريب: اللوم، وأثربه: لامه. (مادة ثرب) نفسـه/ ٨٠ .

وفى استدعائه لهذه القصة القرآنية تدعيم لحجته، وتقوية لنسيجه اللغوى والأسلوبى، وأحاطته الصورة بخياله الخصب فجعل فعل الوشاة معه كفعل أخوة يوسف مع الذئب الذين اتهموه ظلما وعدوانا، وبهذا أكسب صورته الجدة والطرافة والابتكار ٠

وتوحى البنية الاستعارية فى قوله: "وإذا المنى بقبولك الغض الجنى هزت ذوائبها" بأن الشاعر تواق إلى الحرية، ففى حركة الأمانى دلالة على التوسل والاستعطاف المشوب بالأمل فى الصفح والعفو عنه، متمثلاً فى ذلك موقف يوسف مع إخوته عندما صفح عنهم بعد الذى لاقاه منهم، وهذا ما يفسر جواب الشرط فى "فلا تثريبا" ٠

ويرد ابن زيدون فعل الوشاة معه، وتألبهم عليه إلى ارتفاع نجمه، وسبقه إياهم بعلمه، وتقدمه عليهم بفضله، مما جعلهم يوغرون صدر الأمير عليه، فأصم سمعه عن عتابه واستعطافه، وأصغى إلى وشاياتهم التى يمزقون بها سمعته كلما وجدوا إليها سبيلا، وهذا ليس بجديد عليهم فحياتهم قائمة على الحقد والحسد، مؤكدا هذه المعانى من خلال المحسن البديعى "الطباق" الذى يبرز المعنى ويؤكده فى ذهن المتلقى، كما جاء فى البيتين الأول والثانى:

عدا سمعه عنى وأصغى إلى عدا ∴ لهم فى أديمى كلما استمكنوا عطّ
بلغت المدى - إذ قصروا - فقلوبهم ∴ مكامن أضغان أساودها رقط
يؤلوننى عرض الكراهة والقلى ∴ وما دهرهم إلا النفاسة والغمط(١)

وقد جاءت الكنايات المتعددة فى هذا النص ترسم صورة قوية لهذا الصراع القائم بينه وبين حساده ومنافسيه ٠

ثم يهون من فعل الوشاة ويعرض بهم، ويفند دعواهم معلنا الخضوع للأمير ابن جهور، وطامعا فى عفوه مع التهوين لما ارتكب من ذنب، على افتراض أنها نزوة من نزوات الشباب العابرة، وإن صح أننى كنت مخطئا حقا لما

---

(١) ديوان ابن زيدون صـ٢٩١ . الأديم: الجلد، أو أحمره، والجمع آدمة . مادة (أدم) القاموس/ ١٣٨٩. عط: عط الثوب: شقه طولا أو عرضا، والمراد هنا: التمزيق. مادة (عط) نفسه/ ٨٧٥، أضغان: أحقاد والضغن هو الحقد. مادة (ضغن) نفسه/ ١٥٦٤ . الأساود: جمع أسود وهو الحية العظيمة ، رقط: جمع رقطاء وهو الجن المختلطة السواد بالبياض، وتعد من أخبثها. القاموس/ ٨٦٢ ، الغمط: الحسد. نفسه/ ٨٧٨ ٠

كان غريبا من سجاياك الحميدة، أن ترجئ العقوبة أولا، وتمنحنى عفوك، فمهما كان من ذنب فإنه موضع للعفو لأننى لم أثر حرب الفجار، ولم أتابع مسيلمة الكذاب فى دعواه، لأن رجاحة العقل والإخلاص لك تمنعنى من مواقعة هذه الذنوب التى اخترعها على الوشاة:

ولو أننى واقعت عمدا خطيئة ∴ لما كان بدعا من سجاياك أن تملى
فلم أستثر حرب الفجار ولم أطع ∴ مسيلمة إذ قال: إنى من الرسل
ومثلى قد تهفو به نشوة الصبا ∴ ومثلك من يعفو ومالك من مثل
وإنى لتنهانى نهاى عن التى ∴ أشاد بها الواشى ويعقلنى عقلى[1]

واستدعاؤه لهذه الحوادث التاريخية بدقة متناهية ووضعها فى سياقها الأسلوبى دليل على ثقافته الواسعة، وقدرته على توظيفها فى سياقها الدلالى، بما يقوى حجته، ويضفى على أسلوبه قيمة فنية عالية تهش لها الأسماع.

وجاء الشرط وجوابه "ولو أننى واقعت عمدا خطيئة، لما كان بدعا من سجاياك أن تملى"ليؤكد الفعل عن غير قصد، وفى المقابل يؤكد صفح وعفو الأمير ، ومما يميز هذا الخطاب الاستعطافى هو تكرار الفعل المنفى بلم طلبا للاستعطاف والاستشفاع، مفصحا عن النزعات النفسية لدى الشاعر .

فقد أفصح الفعل الأول "أستثر" بعده عن مواطن الفتنة والتأليب على الأمير، ثم جاء الفعل الثانى "ولم أطلع" تعزيرا للدلالة النفسية التى تضمنها الفعل الأول، وعليه فإن نفى التهمة عن نفسه هو الفضاء النفسى الذى يغلف تفكير الشاعر باستعطاف الأمير والطمع فى صفحه وعفوه.

وقد انقسمت ذات الشاعر فى هذا الخطاب إلى شطرين: الأول: نفى التهمة عن نفسه مهما كبرت، والثانى: التودد والاستعطاف لدى الأمير،و ذلك واضح فى قوله :

"**ولو أننى واقعت عمدا خطيئة ∴ لما كان بدعا من سجاياك أن تملى**"

---

(١) ديوان ابن زيدون صـ٢٦٩، أملى: أطال وأمهل، مادة (أمل) القاموس / ١٢٤٤ . حرب الفجار: بكسر الفاء حدثت أربع مرات فى الجاهلية فى الأشهر الحرم ، كانت بين قريش ومن معها من كنانة وبين قيس عيلان، وكانت الدبرة على قيس عيلان، حضرها النبى ﷺ وهو ابن عشرين سنة . القاموس / ٥٨٤ .

وقوله: "ومثلى قد تهفو به ، ومثلك من يعفو ٠

ناهيك عن تدافع المعانى واحتشادها فى ذهن الشاعر بتعدد حرف العطف (الـواو) للربط بينها على المستوى الدلالى والأسلوبى ٠

فليس من المعقول التنكر لمن قربه من مجلسه، وقيد نفسه علـى مدحـه، فيكون مثل ناقضة الغزل الحمقاء، التى تغزل بالليل لتنقضه بالنهار، كما أنه أكبـر من أن يسود صفحته البيضاء بالخنا، فيسب المجد والكرم فيه، وما كان ليسـىء القول فى صاحب الفعال الطيبات، ومانح المكرمات، ولقد زللـت وإننـى لأرجـو النهوض من عثرتى وأعدائى يزعمون أنها سقطة قاتلة لا نجاة منها كما يسـقط الحسل –ولد الضب–فتلتهمه أمه، فلا تصدقهم فيما يزعمون،فالشفاعة الشـفاعة، متمنياً أن تضم إلى أفضالك السابقة فضل الشفاعة لى فتسل أحقاد خصـومى، أو تبلى عذرا بما بذلته من مساعيك الحميدة:

أأنكـث فيـك المـدح مـن بعـد قـوة ∴ ولا أقتـدى إلا بناقضـة الغـزل
ذممـت إذآ عهـد الحيـاة ولا يـزل ∴ ممـرّا علـى الأيـام طعمهـا المحلـى
ومـا كنـت بالمهـدى إلى السـؤدد الخنـا ∴ ولا بالمسـىء القـول فـى الحسـن الفعـل
ومـا لى لا أثنـى بـآلاء مـنعم ∴ إذا الـروض أثنـى بالنسـيم علـى الطـل
هـى النعـل زلـت بـى فهـل أنـت مكـذب ∴ لقيـل الأعـادى إنهـا زلـة الحسـل
وهـل فـى أن تشـفع الطـول شـافعآ ∴ فتـنجح ميمـون النقيبـة أو تبلـى[1]

وإكثار الشاعر من الاستفهام فى هذه الأبيات مثل: "أأنكث؟، ومالى لا أثنى بآلاء منعم؟، فهل أنت مكذب لقيل الأعادى؟" يبرز رغبته الملحة فى تحقيق أمانيه الماضية ، والرجوع بالعلاقة بينه وبين أميره إلـى عهـدها الأول، واسـتدعاؤه

---

(١) ديوان ابن زيدون صـ٢٧٠، ٢٧١ ، أنكث: أحل ما أبرم مـادة (نكـث) القـاموس/ ٢٢٧، ناقضة الغزل: ريطة بنت عمرو بن كعب بن سعد القرشية، كانت خرقاء تحل ما غزلته، وقد أشارت إليها الآية الكريمة فى سـورة النحـل: ﴿ **وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا** ﴾ سورة النحل آية: ٩٢، الديوان صـ٢٧٠ ٠
الخنا: الفحش. والغدر. مادة (خنى) القاموس / ١٦٥٣، الحسل: الرذل الخسـيس، والحسـل بكسر الحاء: ولد الضب، تأكله أمه صغيرا، مادة (حسل) نفسه/ ١٢٧٢ . الطـول: الفضـل، والقدرة، والإحسان مادة "طول" القاموس/ ١٣٢٨ ، تبلى: أبلاه عذرا: أداه إليه فقبلـه. مـادة (بلى) نفسه / ١٦٣٢ ٠

القصة القرآنية ناقصة الغزل، وإسقاط ملامحها التاريخية على حاضره، فى استخدام فنى يتواءم فيه جانبا الحاضر والماضى مع بث تكثيفى جاء بصيغة الاستفهام يشحذ همة الأمير ونفسه الغاضبة ،والنظر فيما حولها، لعلها تفيق من واقعها، وتصفح عن هذا السجين، وهذا يجعل الانتاجية الشعرية عند ابن زيدون تمثل نوعاً من استعادة النص الدينى فى شكل جلى مما يوحى بثقافته الواسعة ، وتمثله لعناصر التراث الدينى ممثلا فى القصص القرآنى ٠

وفى تكراره لمشتقات المادة الواحدة دليل على التأثير فى متلقيه وإحداث التجاوب النفسى المطلوب، كما فى قوله: "أثنى، وأثنى- زلت ، زلة ــ تشفع، شافعا"، ويأتى المحسن البديعى "الطباق" ليؤكد من خلاله نفى التهمة عن نفسه، وتمكين براءته فى ذهن أميره كما فى قوله : "السؤدد: الخنا"،" ممرا: المحلى"، "المسىء القول، الحسن الفعل"،" تنجح، تبلى" وهذا يجعلنا نلمس فى شعره مسحة من الصدق النفسى والمعاناة الأليمة، وتناسباً بين الألفاظ والمعانى، مما يجعله أكثر تحريكاً للنفس، وتأثيراً فيها ٠

٢ـ طلب الشفاعة من الحاكم والتقلب بين اليأس والرجاء:

ويضرب ابن زيدون على وتر من أوتار الحس الإنسانى ــ من خلال مدحه لابن جهور ــ وبيان حالته وتمرغة فى المذلة والمتربة، قارنا بين ماضيه السعيد، وحاضره التعيس، حيث ناله الشقاء فى ظل الأمير على حين سعد به جميع الناس، وهذه بالنسبة له من العجائب الكبرى التى آلمت نفسه التواقة للحرية، فقد كان يحسب أن تحت رعايته سيكون فى أوج العلاء، لكن حاله توحى بالتصاقه بالتراب، ثم يتساءل متعجبا كيف أقاسى الجحود والنكران بعد أن أينع أدبى وازدهر، واستوى على سوقه، وأتى بأطيب الثمار؟ فيجيب: إن لم تجمعنى بالأمير صلات النسب، فقد جمعتنى به صلات الأدب، والحب الخالص من الشوائب والأكدار، معبرا عن ذلك فى براعة عجيبة تؤلف بين صوره الحية وخواطره المعنوية، فيقول:

حرمت منه وحظ الناس كلهم ∴ لهذه العبرة الكبرى من العبر
قد كنت أحسبنى والنجم فى قرن ∴ ففيم أصبحت منحطا إلى العفر
أحين رف على الآفاق من أدبى ∴ غرس له من جناه يانع الثمر

وسيلة سببا إلا تكن نسبا ∴ فهو الوداد صفا من غير ما كدر[1]

ويكمن وراء هذا الحوار بيان الصراع النفسى الذى يعيشه الشاعر، والذى يبرزه الاستفهام فى قوله :"ففيم أصبحت منحطا إلى العفر؟، أحين رف على الآفاق من أدبى.." وما تصارع فى النفس من جانبى السرور والحزن، ليجتمع هذان المتناقضان لديه، مشيرين إلى ما يرتبط بها من جميع العواطف التى تنشأ عنهما فى الماضى والحاضر، وكأنه يهتك كل الأقنعة التى تتستر خلفها كل التى جنى حصادها المر، ثم يضىء السبل المفضية إلى الخلاص منها ٠

وقد جاءت الصورة النفسية مسيطرة تماما على النص أكثر من الصورة الفنية ،إذ هى الأولى للتعبير عن نفسيته المتمرغة فى حمأة المذلة والمتربة، والمتوزعة بين حياة ماضية مشرقة حيث المكانة الرفيعة، وحياة حاضرة حيث المعاناة والتشرد والضياع ٠

وجاءت الأفعال الماضية فى النص لتدلل على جانب الفوات والتحسر على ما كان "حرمت، كنت، أصبحت، رف، صفا" وأكد هذه المعانى بالمحسن البديعى الذى جاء عفو الخاطر،" كالطباق" بين قوله: "النجم: العفر" وقوله: "صفا : كدر"، والجناس الذى يعطى نوعا من التنويع الموسيقى الذى تهش له الأسماع وتطرب له القلوب مثل: "العبرة : العبر" ، "سببا، نسبا" لعل أميره يعيره أذنه، فيرق قلبه، فيصفح، ويعفو ٠

ثم يستدر عطفه مؤملا فيه أن يحقق أمانيه ثانياً كما حققها أولاً ــ قبل دخوله السجن ــ وقد هاجر قلبه إليه متعلقا به، وهجرة القلوب أحق بالرعاية من هجرة الجسوم، وينذر لله أنه ناذر نفسه على مدح الأمير والثناء عليه، إذا ما بشره بالخلاص إسفارًا بوجوه الأحلام، وتحقق الآمال، متكئًا فى تعبيره على خيالة التشخيصى الابتكارى، الذى جعل من قلبه مهاجرًا فى حيب أميره قبل جسده، وجعل من الشكر نذرا يوفيه إلى سيده إذا أسفرت أوجه البشر، وتحققت آماله فى الحرية، مما يضفى على صورته الروعة والجمال:

لى فى اعتمادك التأميل سابقة ∴ وهجرة فى الهوى أولى من الهجر

---

(١) ديوان ابن زيدون صـ٢٥٧ ــ ٢٥٨ ، القرن: البعير المقرون بآخر. مادة (قرن) القاموس / ٨٥٧٩، العفر: ظاهر التراب . مادة (عفر) نفسه/ ٥٦٨ ٠

نـذرت شـكرك لا أنسـى الوفـاء بـه ∴ إن أسـفرت لى عنهـا أوجـه البشـر[1]

ويستمر ابن زيدون فى استعطاف الحاكم لافتا نظره بعدم التشاغل عنه فهو لا يطلب مستحيلاً أو شبه مستحيل مثل رد الشباب بعد الإشـراف علـى الهـرم، وإنما يطلب أمرًا سهلاً لا يعدو أن يكون صفحا أو غفرانا ليستكثر مـن نصـحه وميله إليه، فالنصح الخالص والود المتين كلاهما ثمين لا يوهب ولا يعار، فهـو وإن أخطأ فعذره فى جهله أنه من البشر الذين يخطئون فليس فـيهم مـن هـو معصوم عن الخطأ ، فالإغضاء عن صغائر الذنوب زينة السـيادة التـى تـزدان بالصفح والغفران، كما يزدان الحسن بالحياء، فالشفاعة المطلقة فى يدك لا يقـف فى سبيلها عذر من الأعذار، فاشفع أكن مثل من يأتيه الخصب والنماء فى وطنه، الذى يتمتع فيه بظلال النعيم آمنا من لفحات الحر ولذعات البرد:

لا تلـه عنـى فلـم أسـألك معتسـفا ∴ رد الصـبا بعـد إيفـاد علـى الكـبر
واسـتوفر الحـظ مـن نصـح وصـاغية ∴ كلاهمـا العلـق لم يوهـب ولم يعـر
هبنـى جهلـت فكـان العلـق سـيئة ∴ لا عـذر منهـا سـوى أنـى مـن البشـر
إن السـيادة بالإغضـاء لابسـة ∴ بهاءهـا وبهـاء الحسـن فـى الخفـر
لـك الشـفاعة لا تثنـى أعنتهـا ∴ دون القبـول بمقبـول مـن العـذر
فاشـفع أكـن مثـل ممطـور ببلدتـه جـذلان بـالوطن المـألوف والـوطر
والبس مـن النعمـة الخضـراء أيكتهـا ∴ ظـلا حرامـا علـى الإرمـاض والخـدر[2]

وجاء النهى فى البيت الأول "لا تله عنى" والأمـر فـى الأبيـات التاليـة "استوفر، هبنى، فاشفع" كمحفزات تؤدى دورًا بـالغ الأهميـة علـى الصـعيدين الأسلوبى والتصويرى، وتبرهن على حالة الضياع والمعاناة التـى يعيشـها ابـن زيدون فى سجنه على يد ابن جهور، لذلك توسل بهذه الأساليب الإنشائية الطلبية طلباً للالتماس والاستعطاف، وبيان أن ما يطلبه ليس مستحيلا، وأنه بشر يصـيب ويخطئ ٠

(١) ديوان ابن زيدون/ ٢٥٩ ٠
(٢)السابق/ ٢٦٠-٢٦١ ٠ هبنى: الأمر منه: هب، بمعنى أحسب، فقال هبنى فعلت أى أحسـبنى فعلت. مـادة (وهـب) القـاموس/ ١٨٣ .الإرماض:الحر.مـادة(رمض)القـاموس/٨٣٠ ٠ الخَدر:اشتداد البرد ٠مادة(خدر) القاموس /٤٩٠ ٠

ثم أكد هذه المعانى بإن فى قوله: "إن السيادة بالإغاضة لابسة" فالسيادة تفرض على السيد أن يصفح ويغفر حتى تتحقق زينتها كما تتحقق زينة الحسن بالحياء ٠

وجاء الطباق فى البيت الأول بين : "الصبا: الكبر" ليؤكد أن ما يطلبه ليس عسيرا على أميره أو بعيدا عن متناول يده، وكذلك النفى فى البيت الثانى "لم يوهب ولم يعر" ليؤكد إخلاصه المتين لهذا الأمير لأن الإخلاص فى الود والمحبة لا يمكن هبته أو إعارته لأى إنسان، إلا إذا كان جديرا به ٠

ونسبة الجهل إلى نفسه فى قوله: "هبنى جهلت" وتأكيده بأنه من البشر ليقلل من حدة الغضب عند ابن جهور، ويخفف مما أتى به، فعذره أنه من البشر٠

وتقديم الخبر على المبتدأ فى قوله :"لك الشفاعة" ليدلل على قيمتها لديه، فنفسه تواقة إليها، وأنها مقصورة بيد أميره، فدقة الصياغة ، واختيار البناء الملائم ما هى إلا واحدة من حسنات ابن زيدون، نضيف إليها ظاهرة أخرى وهى تكرار اللفظ الواحد أو مشتقاته فى البيت الواحد على نحو قوله: "كلاهما العلق، فكان العلق، وبهاءها، وبهاء الحسن، لك الشفاعة، فاشفع" ليكسب صوره موسيقية أبعد تأثيرا ، وأشد فى التأثير على المتلقى، بجانب ما تضيفه هذه المشتقات من معان إضافية لا تنكر، وبخاصة إذا كانت على إيقاع بحر البسيط الذى استوعب بتفعيلاته الرحبة المشاعر النفسية التواقة إلى الحرية لدى ابن زيدون٠

ثم يلح فى طلب الشفاعة من أميره فهو رهن الانتظار لتلك الأمنية البعيدة العزيزة على نفسه، فإن تحققت آماله فهذا من سجايا أميره الكريمة ومآثره القائمة على العدل، وأخلاقه المتسمة بالرفق والفضل، وإن كانت الأخرى فعليه أن يرحل إلى بلاد بعيدة محتملا لمرارة الفراق، ليظفر بحلاوة الأمان، ومكابدا لمشقة الأسفار فى وحشة الظلام ليظفر بالسكينة والاستقرار بعيدا عن الذل والهوان، ليجد من يعرف قدره، ويعظم مكانته طالما أنها ضاعت فى رحاب أميره، متكئا فى تصويره لهذه النفسية المعذبة المنقسمة بين الحرية والسجن، وبين الاستقرار والترحال ، وبين الارتقاء والانحدار، على التشخيص جاعلا الظن واقفا وقوف

المحب بين القطيعة والوصل، والأمانى شيئا مقدرا ومعلوما، والأنس شيئا يجنى من الوحشة،فيقول:

ألا إن ظنى ـ بين فعليك ـ واقف ∴ وقوف الهوى بين القطيعة والوصل
فإن تمنى لى منك الأمانى فشيمة ∴ لذاك الفعال القصد الخلق الرّسل
وإلا جنيت الأنس من وحشة النوى ∴ وهول السرى بين المطية والرحل
سيعنى بما ضيعت منى حافظ ∴ ويلقى لما أرخصت من خطرى مغلى[1]

وليؤكد هذه المشاعر التى تمور بها نفسه، ويجعل ما يطلبه واضحا جليا فى ذهن أميره، ويحدث نوعا من التجاوب النفسى، استعان بالمحسن البديعى الطباق بين قوله : "القطيعة: الوصل"، "الأنس: وحشة"، "ضيعت: حافظ"، "أرخصت: مغلى" ، كما أن الجناس فى قوله : (واقف: وقوف) ،و "تمن: الأمانى"،و"فعليك: الفعال" يثرى من موسيقية هذه الأبيات، ليكون وقعها جميلا على أذن وسمع المتلقى ٠

وبعد أن أصابه اليأس وأظلم نور الأمل فى عينيه، وبح صوته من النداء والاستغاثة والاستعطاف القائم على الشكوى حينا، والتودد حينا أخرى، هدد الشاعر بالالتجاء إلى غير أميره من الأمراء الذين يعرفون مكانته، ويعظمون قدره ،مما يزيد من حسد الحساد والشامتين ،وهنا كان عليه أن يظهر الشموخ أمامهم، وإلقامهم حجر القافية، مذكرا إياهم أنها أقدار تبدل الأوضاع والأحوال، فالحوادث لا تعصف إلا بالعظماء، كما أن الرياح تتجاوز النبات اللاصق بالأرض وتحطم الأشجار الضخمة، والكسوف يعترى الشمس والقمر دون النجوم، وإن طال فى السجن إيداعه فلا داعى للعجب، فهو كالسيف الصقيل البتار يقر فى غمده حينا، ثم لا يلبث أن يسل عند الشدائد والأهوال، متكئا فى تعبيره على

(١) ديوان ابن زيدون/ ٢٧٢، ٢٧٣ . تمنى: تقدر، من منى له: أى قدر. مادة (منى) القاموس/ ١٧٢١، الرّسّل: السير السهل، والرسل: الرفق والتؤدة. مادة (رسل) نفسه/ ١٣٠٠ . القصد: العدل مادة (قصد) نفسه/ ٣٩٦ . السرى: السير ليلا. مادة (سرى) نفسه/ ١٦٦٩ . المطية : الركوبة المسرعة تمطو فى سيرها. مادة (مطا) نفسه/ ١٧٢٠ ، الرحل: مركب البعير، ومسكنك، وماتستصحبه من أثاث . مادة (رحل) نفسه/ ١٢٩٨ ٠

التشبيه الذى يؤكد المعنى ويجعله واضحا جليا فى ذهن المتلقى، وماثلا أمام عينيه، فيقول:

لا يهنىء الشامت المرتاح خاطره ∴ أنى مُعَنّى الأمانى ضائع الخطر
هل الرياح بنجم الأرض عاصفة؟ ∴ أم الكسوف لغير الشمس والقمر؟
إن طال فى السجن إيداعى فلا عجب ∴ قد يودع الجفنَ حدُّ الصارم الذكر[1]

ويأتى الاستفهام فى البيت الثانى ليقرر ما عبر عنه، فهو كالأشجار السامقة التى تعصف بها الرياح ، وكالشمس والقمر اللذين يعتريهما الكسوف والخسوف دون النجوم، وكالسيف القاطع الحاد الذى يغمد فى جفنه، وذلك تعزية لنفسه، وتأسية لها.

فإن تآلبت عليه الأيام ورمته بنبالها التى تصمى، فهى لا ترمى إلا العظماء وهو واحد من هؤلاء العظماء، مؤكدا ذلك من خلال الجناس التام لإحداث نوع من التناسب اللفظى، والإيقاع الصوتى، والتردد الموسيقى، لتكون الصورة أوقع فى الذهن، وآكد فى النفس:

وهو الدهر ليس ينفك ينحو ∴ بالمصاب العظيم نحو العظيم[2]

وإذا كان الشاعر ألقم الحساد والشامتين حجر القافية سترًا لضعفه بالتعالى صمودًا فى تيار البؤس والشقاء، فإنه للمرة الأخيرة يتودد لأميره ابن جهور ليذلل صعابه، ويحقق أمانيه ، فرجاؤه فيه ثابت لا يتغير ، وإن أبطأ فى الصفح عنه، وحبه له باق على الدهر مهما تغيرت القلوب:

وزعيم بأن يذلل لى الصعـ ∴ ـب مثابى إلى الهمام الزعيم
أمل يرعم الجفاء إليه ∴ وهو ثبت المقام ماضى الغريم
ووداد يغير الدهر ما شا ∴ ء ويبقى بقاء عهد الكريم[1]

---

(١) ديوان ابن زيدون صـ٢٥٤ ــ ٢٥٥ .الخطر: الإشراف على الهلاك، أو الشرف والمكانة. مادة (خطر) القاموس / ٤٩٤ . نجم: النجم. ما لا ساق له من النبات. مادة (نجم) القاموس/ ١٤٩٩، الجفن: غمد السيف مادة (جفن) نفسه/ ١٥٣١ . الصارم: السيف القاطع. مادة (صرم) نفسه/ ١٤٥٧، الذكر: أيبس الحديد وأجوده، المراد هنا الصلب المتين. مادة (ذكر) نفسه/ ٥٠٨ .

(٢) ديوان ابن زيدون صـ٢٨٠ .

فالشاعر عمد إلى إبراز الصفات المعنوية فى ممدوحه ، والتى تكون زخرا بين الأصدقاء ودليل المحبة والإخلاص والوفاء، مؤكدا هذه الصفات، ومرغبا فيها، ليجعل أميره يعيش معه فى قلب التجربة النفسية التى يعايشها وذلك من خلال التكرار فى البيت الأول، فى قوله : "زعيم : الزعيم" ،كما أن المجانسة بين هذين اللفظين يعطى بعدا موسيقيا يكون له الوقع الحسن على أذن السامع، والتشخيص للصورة الفنية التى صاغها بروعة فائقة فى الخيال فى البيتين التاليين حيث جعل الأول ثابت المقام، ماضى العزم والوداد، باقيا على العهد مهما تغيرت الأحوال ٠

ثم يذكره بآياديه السابغة عليه من ثناء يتسلى به عن شوقه الراحل، ويسعد به المقيم، ومدائحه فيه يتسامر بها السامرون، فهى ريحانة للأصدقاء، ومزاج لكئوس الندماء:

وثناء أرسلته سلوة الظـ ∴ عن عن شوقه ولهو المقيم
فهو ريحانة الجليس ـ ولا فخـ ∴ ـر ـ وفيه مزاج كأس النديم(٢)

وكان للتدوير فى هذين البيتين أثره الفعال فى التعبير عن نفسية الشاعر المعذبة بآهات السجن، وعاطفته المكلومة بأداة القهر، حيث دفعته إلى اجتياز الشطر الأول فلا يتوقف إلا فى نهاية الشطر الثانى، وكأن الموقف لا يسعفه فى التوقف عند كل شطرة من البيت، فجاء بالبيتين منقسمين مثل نفسيته ٠

٣ ـ طلب الشفاعة من الآخر "الطبيعة، والصديق":

ولما شعر ابن زيدون أنه يغازل المستحيل فى غزو قلب الأمير، وأصبح تعلقه به تعلق السراب الخادع والسحاب الكاذب، ذهب يلتمس الرحمة من كائنات أخرى يرى أنها جديرة بأن تشاركه مشاعره وأحاسيسه التواقة إلى الحرية والانعتاق من السجن، فلجأ إلى الطبيعة جامدة ومتحركة علّها أن تقاسمه هذه المعاناة، فقد حان للغمام أن يندبه، وللبرق أن يسلّ سيفه مطالبًا بثأره، وهلا

---

(١) نفسه صـ٢٨٣ ــ ٢٨٤ . يرعم: رعم الشيء رعما: رعاه وراقبه . مادة (رعم) . القاموس/ ١٤٣٩ ٠ زعيم: كفيل، القاموس/ ١٤٤٣ ، العزيم: العزم والتصميم. مادة (عزم) نفسه/ ١٤٦٨ ٠

(٢) ديوان ابن زيدون صـ٢٨٤ ٠

أقامت النجوم مأتما تندب فيه ذكره الحسن، وآثاره الطيبة التى بددتها الأحداث، ولو أنصفته النجوم ــ وهى عالية مثل همته ــ لهوت ذليلة حينما أبصرت ذله وهوانه، ولافترقت نجوم الثريا السبع بعد ائتلافها، ونقصت بعد تمامها، حزنا على ما فرقه الدهر من شمله، مازجًا كل أولئك فى تصوير تشخيصى شائق، وإيقاع متدفق يجيش بالحيوية التى عبر عنها بأرق تعبير:

ألم يأن أن يبكى الغمام على مثلى؟ ∴ ويطلب ثأرى البرق منصلت النصل
وهلا أقامت أنجم الليل مأتما ∴ لتندب فى الآفاق ما ضاع من تتلى
ولو أنصفتنى وهى أشكال همتى ∴ لألقت بأيدى الذل لما رأت ذلى
ولافترقت سبع الثريا وغاضها ∴ بمطلعها ما فرق الدهر من شملى[1]

واتكاء الشاعر على البناء الاستعارى التشخيصى فى هذه الأبيات بجعل الغمام يبكيه، والبرق يطلب ثأره بسيفه الحاد، وأنجم الليل تندبه فى الآفاق، وإهواءها من عليائها ذليلة لذله، وافتراق نجوم الثريا السبع حزنا عليه "ليرتفع بالمادى ليصل إلى مستوى الأحياء فى الحركة والسلوك"[٢].

فهذه الظواهر الطبيعية تأسى له وتحزن لحزنه، وتعزيه فى محنته، حيث تحولت هذه المسميات المادية (الغمام، البرق، النجوم) إلى كائن حى فى الحركة والسلوك، يشارك الشاعر مشاركة وجدانية.

كما أن الوحدات اللغوية فى النص جذبت قطاعا لغويا خاصا تمثل فى معانى الذل والقهر، فالألفاظ "يبكى، يطلب ثأرى، مأتما، تندب، أنصفتنى، الذل، افترقت" تدل على شعور نفسى مثقل بالهم والحزن، لا تستطيع ألفاظ أخرى أن تحمل الشحنات النفسية التى تشكل انفعال الشاعر، كما استطاعت هذه الألفاظ .

وفى قوله: "ألم يأن أن يبكى الغمام على مثلى؟" خرج الاستفهام بالهمزة المقرونة بالنفى إلى التقرير بأنه جدير أن تندبه، وتهيب الطبيعة بكل ظواهرها بمجده ومكانته ، بعد أن فقده فى دنيا الناس، والتقرير بالهمزة أكثر تأثيرا من

---

(١) ديوان ابن زيدون صـ٢٦١، ٢٦٢ ، المنصلت: السيف الصقيل الماضى. مادة (صلت) القاموس/ ١٩٨ ، تتلى: التتل: ضرب من الطيب. مادة (تتل) القاموس/ ١٢٥٤، غاض: نقص وقل، مادة (غيض) نفسه/ ٨٣٨ .

(٢) تشكيل الصورة فى شعر زهير بن أبى سلمى د/ عبدالقادر الرباعى صـ٦٢٣ .

التقرير الصريح، والنفى (بلم) جاء لينفى الشاعر أن تتركه الطبيعة بعدما حل بـــه الذل والهوان، وتبدل الأحوال ٠

وكأن فى هروب الشاعر إلى الطبيعة قد أعطاه دفعة قويـــة للتغييـــر مـــن موقفه الضعيف، إلى التماسك والتحامل على الذات، والتماس جانب الصبر دافعًـــا عن نفسه قيود الذل والمهانة، ليتوجه إلى أمه بخطاب شـــفيف رقيـــق، إشـــفاقًا عليها، بعد أن تعاظم قلقها، وخوفها على مصيره، داعيًـــا إياهـــا إلـــى الصـــبر، ومناشدًا لها أن تتأسى بما أصاب غيره من أرزاء، فليست أول أم ضمت جوانحها على آلام الثكل، فقد سبقتها أم موسى ــ عليه السلام ــ حينما قذفت به إلى الـــيم امتثالا لأمر الله ــ جل شأنه ــ ولها الأسوة فى ذلك:

أمقتولـــة الأجفـــان مالـــك والهـــا؟ ٠ ألم تـــرك الأيـــام نجمـــا هـــوى قبلـــى
أقلـــى بكـــاء لســـت أول حـــرة ٠ طـوت بالأسـى كشـحًا علـى مضـض الثكـل
وفـــى أم موســـى عـــبرة إذ رمـــت بـــه ٠ إلى الـــيم فـــى التـــابوت فـــاعتبرى واســـلى(١)

استهل الشاعر أبياته بصورة معنوية كنائية ما زالت تختلج فـــى وجدانـــه، فإذا كان السجن قد باعد بينهما وغيبها عن عينه فهى حاضرة فى قلبه وعقلـــه، ولكنه حضور حزين، حيث صور أسلوبا النداء (أمقتولة)، والاستفهام (مالك) ألـــم الشاعر وحرقته على أمه التى أنهكها الحزن، وألمّ بها الوجد ٠

وجاء الاستفهام فى الشطر الثانى ليقرر أنه ليس الوحيد الذى هوى نجمه، وتمرغ فى حمأة المذلة والمتربة، وذلك ليشد من أزر أمه الولهى، وفعل الأمر فى البيت الثانى "أقلى" جاء طلبا للالتماس من أمه أن تقل من بكائها، فمـــا أصـــابها بسبب محنته أصاب غيرها٠

وجاءت الاستعارة المكنية فى قوله: (طوت بالأسى) لتصور وتؤكـــد عظـــم هذه المصاب، حيث جعل الأسى شيئا يطوى بين الصدور، وجاء استلهام الشـــاعر للقصة القرآنية قصة موسى ــ عليه السلام ــ حينما ألقت به أمه فى اليم بـــأمر

---

(١) ديوان ابن زيدون صـــ٢٦٤ . مقتولة الأجفان: واهية الجفون كأنها قد نضبت فيهـــا الحيـــاة لغزارة ما ذرفته من الدموع . الوله: الحزن أو ذهاب العقل . مادة (وله) القاموس/ ١٦٢١ ٠ الكشح : ما بين الخاصرة إلى الضلع ، وطوى كشحه على الأمر: أضمر وستره. مادة (كشح) القاموس/ ٣٠ ، المضض: وجع المصيبة . مادة (مضض) نفسه / ٨٤٣ . الثكل: فقد الولد أو الحبيب مادة (ثكل) نفسه/ ١٢٥٧ ٠

من الله، ليعمل على توسيع الأفق الإدراكى والتخييلى لدى المتلقى، ويكون ذلك دفعا للعظة والعبرة لدى أمه ٠

فإذا تنكرت له الأيام فى عدم نيل عفو الأمير، ورمته بسهامها ونبالها المصمية، فحسبه ربه، فله حكمه فيما يقضيه من أحداث، قد يتكشف غيبها عن خير عميم، وحسبه عدالته وإنصافه إذا عضه الدهر بنابه، وجار عليه فى أحكامه:

ولله فينا علم غيب، وحسبنا ∴ به ـ عند جور الدهر ـ من حكم عدل(١)

وجاءت الجملة الاعتراضية لتؤكد ما يدور فى نفس الشاعر من أحزان وآلام، رماه بها الدهر فأنزله من الثريا إلى الثرى، حيث لا منجى منها إلا إليه سبحانه، فهو الحكم العدل ٠

ولكن الشاعر ما زال يأخذ بالأسباب، والتوجه لإطلاق آخر سهم فى كنانته عله يصيب الهدف، ويرق له قلب الأمير فيعفو ويصفح ٠

وبعد أن أهاب بالطبيعة طلبا للعون والمشاركة الوجدانية، وتمريره يدًا رحمية فى كلمة كريمة إلى أمه المقرحة الجفنين، الساهرة العينين همًا وغمًا خوفًا على مصيره، وأخذه القوة الروحية من حسن توكله على ربه ينبوع رحمته، وفيض حنانه، يلجأ الشاعر إلى طريقة جديدة، وهى التماس العون من الأصدقاء، فيلتفت إلى صديقه (أبىحفص ابن برد الأصغر)(٢) يلتمس منه العون، ويتشفع فيه لدى الأمير، مخاطبا له بقصيدة رائعة جاءت مطابقة لواقعه المرير، فاتسمت بوضوحها، وسهولة عباراتها، مفتتحًا إياها بصورة تأملية رائعة تبين فعل الدهر فينا من رفعة وذلة ، ومصطرع يكشف عن جوهر الإنسان نبلاً وخسة، وزيفًا وأصالة، ودنيا نلبسها إلى حين، فهى متعة إلى زوال:

وكذا الدهر إذا ما ∴ عزّ ناس ذلّ ناس
وبنو الأيام أضيا ∴ ف : سراة وخساس

---

(١) ديوان ابن زيدون صـ٢٦٤ ٠

(٢) أبوحفص أحمد الأصغر بن محمد بن أبى حفص أحمد الأكبر بن برد، وزير وكاتب وشاعر، له رسالة تسمى (السيف والقلم) ينتمى إلى بنى برد وهى أسرة عريقة فى الأندلس . معجم الأدباء لياقوت الحموى ٢/ ١٠٦ ــ الذخيرة لابن بسام ق١ م١/ ٤٨٦ ت.د/إحسان عباس٠

نلـــبس الـــدنيا ولكـــن ∴ متعـــــة ذاك اللبـــــاس[1]

مؤكدًا هذه المعانى النفسية التى تمور بها نفسه الحزينة من خلال الصـور الكنائية المتعددة التى ساقها فى أبياته، ليجعل المتلقى يشاركه هذه المحنـة بكـل أحاسيسه ومشاعره، فالدهر يرفع أناسا، ويخفض آخرين، والناس منهم الأشراف ومنهم الأوغاد الخساس، أما الدنيا فهى كالمتعة الزائلة التى نلبسها إلى حين، ثم يعترى ذاك اللباس البلى والتمزق، ولكن من الذى يبلغ حقيقتـة غيـر الإنسـان فيحول من قوة وشباب إلى تراب٠

وجاءت البنية البديعية المتشحة بالطباق بين (عز: وذل) و(سراة: خساس) لتبرز التحول الدرامى الذى زلزل حياة ابن زيدون، فاستبدل العز بالذل، والجلوس مع رفعة القوم بالجلوس مع سفلة القوم، فالدهر لا يبقى على حال، مما كان لذلك أثره البارز فى نفس ابن زيدون المحطمة بين أركان السجن، وعصا السجان٠

ثم يخاطب صديقه (ابن برد الأصغر) وهو فى حيرة من أمره مـن أولئـك الذين خانوا العهد، وتنكروا للود، فلا يسعون إلى خلاصه وهو يائس شـقى فـى ظلمات السجن، كما لو كان (السامرى) الذى أضـل بنـى إسـرائيل فعاقبـه الله بالوحشة والانفراد، فلا يمس إنسانا إلا أصابتهما الحمّى معا، ليس هذا فحسـب، وإنما انقلب عليه بعض هؤلاء الأصدقاء ذئابا، ينهشون لحمه، ويتتبعون أخبـاره كالذئب المتلصص للفريسة فى الظلام طمعا فى التهامها:

أنـــا حـــيران وللأمـــر ∴ وضـــــوح والتبـــــاس
مـا تـرى فـى معشـر حـا ∴ لـوا عـن العهـد وخاسـوا
ورأونـــى ســـامريا ∴ يتقـــى منـــه المســـاس
أذؤب هامـــت بلحمـــى ∴ فانتهـــاش وانتهـــاس
كلـــهم يســـأل عـــن حـــا ∴ لى وللـــذئب اعتســـاس[2]

---

(١) ديوان ابن زيدون صـ٢٧٣ ــ ٢٧٤ . أخياف: مختلفون. مادة (خيف) القـاموس/ ١٠٤٦ ، سراة: أعلى كل شىء، والجمع سرى وهو الماجد السخى. مادة (سرى) القاموس/ ١٦٧٠ ٠

(٢) ديوان ابن زيدون صـ٢٧٥ ــ ٢٧٦. خاس: غدر ونكث. مادة (خـيس) القـاموس/ ٦٩٩ ، السامرى: أحد بنى إسرائيل من قبيلة السامرة صنع العجل وعبده، ودعا قومه إلـى عبادتـه، فعاقبه الله بالوحشة والانفراد، فلا يمس إنسانا إلا أصابتهما الحمى معا، فكان يتحاشى النـاس، ويناديهم إذا رآهم "لا مساس" وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك فى سـورة طـه : آيـة ٩٧ ، المعجم الوسيط/ ٤٦٥، اعتساس: اعتس: طاف بالليل. مادة (عس) القاموس/ ٧١٩ ٠

وكان هذا التبدل من جهة الأصدقاء سببا فى ألم ابن زيدون وشقائه، فهو ألم نفسى وروحى، مبعثه التباين بين حياة ماضية، وحياة فى السجن، وأساسه الاختلاف الواضح بين الأنس والعزة التى كان يعيش فى ظلها، والوحدة النفسية التى وجد نفسه بين أنيابها فى سجنه، مؤكدا ذلك من خلال توظيفه لقصة السامرى مع بنى إسرائيل، التى توحى بمدى العزلة النفسية الرهيبة التى يعيش فى غمار أحداثها، وفى جمعه لكلمة ذئب بـ(أذؤب) يوحى بكثرة هؤلاء المتكالبين الذين أوغروا صدر الأمير عليه، وجاء التشبيه البليغ فى قوله: "ورأونى سامريا" وقوله "أذؤب هامت بلحمى" ليعطى تصويرا بليغا ودقيقا لدى المتلقى لإثارة انتباهه لما حدث له على أيديهم من البعد والإقصاء، وانتهاش لحمه وتلصص أخباره.

ويأخذ الشاعر نفسه بالأمل بعد اليأس تعزية لنفسه وتصبرا لها، موقنا أن هذا العسر سيعقبه يسر، فإذا قسا الدهر فسينجم عن قسوته النعيم، كما يتفجر من الصخر الماء الزلال، وما حالى مع الأيام فى السجن إلا كذاك الغيث الذى قد يحتبس حينا عن السقوط، ثم لا يلبث أن يهطل فيسقى النبات، أو كذاك الأسد الجرئ الذى يسكن حينا مسلما لبدته للسهام، فى حين أن تلبده هو أهبة الاستعداد للوثوب على فريسته، فتأمل يا صديقى كيف صارت بى الأمور، حيث انطبقت عين المجد عن رؤية فضائلى، وزينة آدابى، حتى صرت كالمسك مطروحا فى التراب تحت النعال:

إن قسا الدهر فللما ء من الصخر انبجاس
ولئن أمسيت محبو سا فللغيث احتباس
يلبد الورد السبنتى وله بعد افتراس
فتأمل كيف يغشى مقلة المجد النعاس
ويفت المسك فى التر ب فيوطا ويداس[1]

وللتعبير عن هذه المعانى النفسية التى تفوح منها رائحة الأمل، وتدفع شماتة الحساد، استعان الشاعر ببعض الأساليب الفنية لخلق الصورة المثالية

(١) ديوان ابن زيدون صـ٢٧٦ ــ ٢٧٧، انبجاس: انبجس : تفجر. مادة (بجس) القاموس/ ٦٨٤، الورد: من أسماء الأسد. مادة (ورد) القاموس/ ٤١٥ ، السبنتى: الأسد أو النمر الجرئ. مادة: (سبت) القاموس/ ١٩٥ .

تعزية لنفسه المنقسمة بين اليأس والأمل، فعمد إلى أسلوب الشرط فـــى البيتـــين الأول والثانى لتقوية دلالة الأمل فى نفسه، وكأن الأمـــور لا تثبـــت علـــى حالـــة واحدة، فكلها إلى تغير وتبدل، والطباق بين: "الصخر: انبجاس" و"يلبد: افتـــراس" لإبراز منزلته ومكانته وبعث الأمل فى نفسه، فمهما أصابته الأيام بنبالها، فـــذلك إلى حين، مثله فى ذلك مثل الصخر الصلد الذى يتفجر بالماء الزلال، والأسد الذى يلبد إلى حين ثم يعاود الافتراس، والجناس الذى استثمره الشاعر استثمارا فنيـــا بارعا فى قوله: "محبوسا: احتباس" حيث أسند اللفظ الأول إلـــى ســـجنه وقلقـــه ،واللفظ الثانى إلى المطر، حيث أحدث هذا التجانس اللفظى تواصلا دلاليـــا بـــين الشاعر والغيث، ووظف المشهد البصرى عن طريق التشبيه الضمنى فى الأبيـــات الثلاثة الأولى لتعميق الإحساس بجوانب الصورة، وإقامة البرهان علـــى الحكـــم المراد إثباته إلى نفسه من أن هذه الأمور قد تحدث ضمنا٠

كما أن حضور الأفعال المضارعة فى الأبيات مثـــل قولـــه: "يلبـــد، تأمـــل، يغشى، يفت" يوحى بتجدد الأمل فى نفسه، واستمراره مهما ضاقت بـــه الأحـــداث والسبل ٠

إلا أن اليأس يلاحقه فى سجنه، فإن تنسمت شعل الأمل فى نفسه، فاليـــأس كفيل بإطفاء أنوارها، معبرا عن ذلك بالصورة الكنائية ــ فى البيت الأخير ــ التى تشحذ ذهن المتلقى وتجعله يشارك الشاعر محنته، فقد أصبح مطروحا فى التراب يداس بأرجل العامة، بعد أن كان مسكا يعبق بأريجه وانتشار رائحته ٠

وهكذا فقد اعترى المستوى النفسى لدى الشاعر انحراف حاد، تمثـــل فـــى إشاعة بشائر الأمل فى نفسه اليائسة، ثم أزالها فى البيت الأخير معبرا عن ذلـــه وامتهان كرامته، ويعد هذا التباين مثيرا أسلوبيا يعمل على تنبيه المتلقى، ورفـــع درجة يقظته، مما يؤدى إلى زيادة التجاذب بين النص والمتلقى ٠

ولذا فهو يطلب من صديقه أن يجد فى تخليصه ويســـرع فـــى ذلـــك، وأن يكون ودّه ثابتا دائما له مثل ودّه، وأن يتذكره كلما صفت له الحياة، وطـــاب لـــه الشراب فى أوقات السعادة والهناء، فعسى أن يخلصه الدهر من هـــذه المحنـــة، فيشاركه أوقات فرحه، وساعات سروره:

لا يكـــــن عهـــــدك وردا ∴ إن عهـــــــدى لـــــــك آس
وأدر ذكـــــــرى كأســـــــا ∴ مـــــا امتطـــــت كفـــــك كـــــاس
وعســـــى أن يســـــمع الدهـــــ ∴ ـــــر فقـــــد طـــــال الشـــــماس[1]

فآلام النفس الجريحة تنساب رقراقة بين هذه الأبيات، مما جعلـه يبـدؤها بثنائية النهى والأمر فى قوله: "لا يكن عهدك وردا"، و"أدر ذكرى"، وقد خرج كـل منهما من مستواه الدلالى الحقيقى إلى المستوى الدلالى البلاغى فأفاد الالتمـاس؛ فهو يلتمس من صديقه أن يحافظ على عهد الود والصداقة، وأن يتذكره فى كـل الأوقات وبخاصة أوقات السرور والسعادة، فالصداقة والأخوة مسـوغ للإلحـاح على الأمر والنهى.

وقد ساعده أفقه الخيالى الخصيب أن يوشح أبياتـه بالصـور التشـبيهية البليغة التى تتسم ببعد نفسى مؤثر يتمثل بتشبيه وده تجاه صديقه بـالآس ، وود صديقه بالورد، وتشبيه ذكره فى نفس صديقه بالكأس كلما طاب له الشراب.

وهنا يتوافق البعد النفسى لهذه الصور التشبيهية مع الحالة النفسية التـى يكابدها الشاعر، وهذا يعنى أن مستواها الفنى منوط بالمستوى النفسى للمبدع.

ثم يعمد إلى الصورة الاستعارية فى البيت الأخير فى قولـه: "وعسـى أن يسمح الدهر" التى أعادت الشاعر من ذكرى الماضى إلى ألم الحاضر، فقـد بـح صوته من الشكوى إلى أمير معلن للعصيان عليه، ولعـل الـدهر آن أن يجـود بأسباب تزيل هذا العصيان وتبدله إلى صفح وغفران .

٤ـ اخفاق ابن زيدون فى استمالة الحاكم:

لقد باءت كل محاولاته الاستعطافية التى تضج بالشكوى والأنين بالفشل فى استمالة قلب الأمير إليه، واستدرار عطفه، لأنه كان يرى فى ابن زيدون إنسانًا ماكرًا لا تخدعه منه كلمات الإطراء، لذا لبث فى إغلاق باب السجن عليه .

---

(١) ديوان ابن زيدون صـ٢٧٧. الآس: شجر مشـهور بطـول احتمالـه. القـاموس / ٦٨٤ . الشماس: من شمس الفرس شموسا وشماسا: منع ظهره، والمراد هنا الجموح والعصيان. مادة (شمس) القاموس/ ٧١٢ .

وأكبر الظن أن إخفاق ابن زيدون فى استمالة الحاكم مرده إلى اعتداد ابن زيدون بأدبه وبنفسه، وإدراكه لمزاياه غير مسترسل فى مدح ابن جهور إلا من خلال نفسه[١].

كما أن هناك أبياتا ساقها الشاعر فى معرض استعطافه، استشف منها ابن جهور اتصافه بصفات لا تليق به كأمير مستعطف، منها:

قول ابن زيدون نافيا عن نفسه التهمة التى ألصقت به زورا، وكأن الحاكم يرمى التهم جزافا مغضا الطرف عن الجناة ليمسك بتلابيب البرئ ، وهو بذلك لا يفرق بين الجانى والبرئ:

ما للذنوب التى جانى كبائرها ∴ غيرى يحملنى أوزارها وزَرى[٢]

وقوله فى قصيدة أخرى يتعجل أجل الأمير فى صورة يفضحها مقتضى الحال، وإن تزينت بحلل المدح:

يا بهجة الدهر حيا وهو إن فنيت ∴ حياته زينة الآثار والسير[٣]

وقوله مصورا ما وصل إليه فى سجنه من قهر وعناء بنار البغى التى سرت إلى جنة أمنه فأحالتها إلى هشيم، وفى هذا نعت للحاكم بالظلم والعدوان:

نار بغى سرت إلى جنة الأمـ ∴ ـن لظاها فأصبحت كالصريم[٤]

فمحال أن تصدر كلمة عفو عمن وصفه بهذه الصفات، ولذا لبث مصمًا عنه أذنيه، غير مستمع لتوسلاته، فما كان من بدّ غير الإفلات من هذا السجن الذى ذاق فيه القهر، وأصبح مطروحًا على تراب المذلة والمتربة يوطأ بالنعال، معبرا عن هذه المعاناة بقوله فى رسالة إلى الحاكم بعد فراره:

بنى جهور أحرقتم بجفائكم ∴ جنانى فما بال المدائح تعبق
تظنوننى كالعنبر الورد إنما ∴ تطيب لكم أنفاسه وهو يحرق[٥]

---

(١) فى الأدب الأندلسى جودت الركابى/ ٢٦٦ .
(٢) ديوان ابن زيدون صـ٢٥٥ .
(٣) نفسه صـ٢٥٩ .
(٤) نفسه صـ٢٨٣ .
(٥) ديوان ابن زيدون صـ٥٩٠ ، والمغرب لابن سعيد ١/ ٦٩ .

ثالثا: "الفرار من السجن وتنسم عبق الحرية":

فرّ ابن زيدون من سجنه بعد أن أخفقت توسلاته فى استعطاف الأمير، "ومن المرجح أن أبا الوليد بن جهور صديق الشاعر أعانه على الفرار"[١] إلى إشبيلية التى وجد فيها صدرا رحبا من أميرها الذى أحاطه بكل ما يليق به من علو المنزلة ورفيع المكانة، إلا أن حنينه جذبه إلى قرطبة مهد هواه، ومطرح لهوه، فكره إليها مستخفيا بضاحية الزهراء، تتجاذبه انفعالات شتى، ومشاعر مختلفة، ليراسل صديقه وأستاذه أبابكر مسلم بن أفلح[٢]، يستشفع به عند الأمير، طلبا للتأييد والصفح والغفران "وكلمة تأمين، وإشارة تأنيس وتسكين"[٣] يراجعه بها فيظهر من مخبئه آمنا مطمئنا، فهو لم يفر من سجنه إلا بعد أن أعيته الحيلة فى استمالة الأمير قائلا: "فلم أستجيز أن أكون ثالث الأذلين: العير والوتد، وذكرت أن الفرار من الظلم، والهرب مما لا يطاق من سنن المرسلين [٤]، وقد قال الله عزوجل على لسان موسى عليه السلام: ﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ ﴾[٥]، ويقول أيضا:

فررت فإن قالوا الفرار إرابة ∴ فقد فر موسى حين هم به القبط[٦]

فهو يرى أن الفرار من وطأة الظلم والقهر والإذلال من سنن المرسلين، حيث فر سيدنا موسى ــ ﷺ ــ من أذى الأقباط فى مصر، وهذا ليس مثبتا للشك فيه، أو جبنا أو خسة، وإنما رجاحة عقل، وحسن تدبر، إلى أن تنقشع الغمة، ويتبدد ظلامها ٠

---

(١) مقدمة ديوان ابن زيدون صـ٤٤ ٠

(٢) أبوبكر مسلم بن أحمد بن أفلح من رجال الأدب والنحو المشهورين، كان جيد الدين، حسن العقل متقدما فى علم العربية واللغة، ورواية الشعر، وكان لتلاميذه كالأب الشفيق . انظر الصلة لابن بشكوال ٢/ ٥٩١ ٠

(٣) ديوان ابن زيدون / ٧٥١ ٠

(٤) ديوان ابن زيدون ورسائله / ٧٣٦ ٠

(٥)سورة الشعراء آية: ٢١ ٠

(٦) ديوان ابن زيدون/ ٢٩٢ ، إرابة: اتهام وشك. القاموس/ ٧٥ ٠

ولم لا يفر وقد أصبح – وهو الفتى المرموق – فريسة لكل معتد أثيم، مثله فى ذلك كالجواد الصافن السبّاق الذى كبلته القيود، وأذلته الأغلال، فلا ينتفع به فى الميدان، وكالسيف البتار الذى لا ينتضى للقتال:

ألا هل أتى الفتيان أن فتاهم ∴ فريسة من يعدو ونهزة من يسطو
وأن الجواد الفائت الشأو صافن ∴ تخونه شكل وأزرى به ربط
وأن الحسام العضب ثاو بجفنه ∴ وما ذم من غربيه قد ولا قط؟ (١)

فهذه الشاعرية التى بلغت ذروتها أنغاما حزينة تذيب القلوب، عبر مفرداته المدوية التى تخترق حواجز الزمن مثل قوله: "فريسة ، ونهزة، تخونه، أزرى به، ثاو بجفنه" لتلقى علينا سيولا من الحزن المتفجر، الذى يخرج بعفوية دونما تكلف، لا يحتاج ابن زيدون القصد إليه قصدا، متذكرا شجاعته ومنزلته ٠

وهذا يعنى أن الشاعر ظل مشدودا للصورة التى شكلها لنفسه قبل سجنه، ومأسورا فى إطار الزمن الماضى ٠

ثم يعلق آماله على صديقه أبىبكر متجها إليه بهمة عالية رفيعة، وإن هوت بها الأحداث الجسام، فهو له بمثابة الأب والأهل بعد فقدانهم، فأياديه سابغة ونعمه عديدة ترف ظلالها عليه، فلا يستطيع إنكارها، أو بخسها حقها، فهو أهل للإحسان وجدير بأن يشكر مسديها، وكأنه بذلك يستحثه على تتويج هذه النعم بالاستشفاع له عند الأمير:

عليك أبا بكر بكرت بهمة ∴ لها الخطر العالى وإن نالها حط
أبى بعد ما هيل التراب على أبى ∴ ورهطى فذا حيث لم يبق لى رهط
لك النعمة الخضراء تندى ظلالها ∴ على ولا جحد لدى ولا غمط (٢)

---

(١) ديوان ابن زيدون صـ٢٨٧، ٢٨٨، يعدو: من عدا عليه عدوا وعدوانا: ظلم، أواعتدى عليه. مادة (عدا) القاموس/ ١٦٨٨، النهزة بالضم: الفرصة. مادة (نهز) القاموس/ ٦٧٩ ، الشأو: السبق، والغاية والأمل. مادة (شأو) نفسه/ ١٦٧٤، الصافن: صفن الفرس يصفن صفونا : قام على ثلاث قوائم وطرف حافر الرابعة . مادة (صفن) نفسه/ ١٥٦٢، العضب: القاطع. مادة (عضب) نفسه/ ١٤٨ ، غربيه: حديه. مادة (غرب) القاموس ١٥٣ ٠

(٢) ديوان ابن زيدون/ ٢٨٨ ، فذا: الفذ: الفرد، والمتفرق من التمر، والطرد الشديد. مادة (فذ) القاموس/ ٤٢٩ ، الحجد: الإنكار. مادة (جحد) القاموس/ ٣٤٥ . الغمط: النعمة بطرها، والعافية: لم يشكرها. مادة (غمط) القاموس / ٨٧٨ ٠

وهنا نلاحظ أن عاطفة الشاعر سارت فى منحنى تصاعدى، إذ بدأت أنغاما حزينة مدوية معبرا لصديقه عن أسباب فراره من سجنه، وملتمسا العذر لنفسه، ولكنها سرعان ما زاد أوارها، واشتعل لهيبها عندما شرع فى بيان ما يختلج فى قلبه تجاه صديقه من عهد ووفاء علّه يرق لحاله، ويأسى لنفسه، معتمدا على الصور الاستعارية، جاعلا من الهمة شيئا عاليا رفيعا، إن تكسرت على صخرة الأحداث الجسام التى مر بها، ومن نعمه عليه ظلالا يستظل بها، فكأن وفاءه له دائم لا يمكن نسيانه، فالتبكير بالهمة، والاستظلال بالنعمة دليل على الثبوت والاستمرار فى الوفاء والثبات على العهد، والاعتراف بالفضل لذويه ، والاعتراف بهذا الفضل أهم المسوغات التى جعلته يستحث صديقه أبابكر فى الإسراع للاستشفاع له عند الأمير، بعدما أصابه الضعف، ولحق الشيب بقلبه وإن لم يسرع إلى رأسه، مثله فى ذلك كالروضة الوارفة الغناء التى طال عليها القحط والهلاك، متوسلا بالكناية والتشبيه لإبراز هذه المعانى فيقول:

هرمت وما للشيب وخط بمفرقى ∴ ولكن لشيب الهم فى كبدى وخط
وطاول سوء الحال نفسى فأذكرت ∴ منى الروضة الغناء طاولها القحط[1]

لذا تمنى منه أن يساعده فى أن يسترد مكانته، وتعود حياته كما كانت سعيدة هنيئة، فتزدهر طباعه وتكرم خلائقه، وأن يشمله الأمير بعفوه، فيمحو ذنوبه كما تمحى الكتابة من الصحف.

وأن يختصه بشفاعة ترد عنه غوائل الدهر، وتذل له قياده، ويفوح أريجها كما يفوح أريج العنبر إذا اختلط به المسك الأسود:

وإنى لراج أن تعود كبدئها ∴ لى الشيمة الزهراء والخلق السبط
وحلم امرئ تعفو الذنوب بعفوه ∴ وتمحى الخطايا مثل ما محى الخط
فما لك لا تختصنى بشفاعة ∴ يلوح على دهرى لميها علط
يفى بنسيم العنبر الورد نفحها ∴ إذا شعشع المسك الأحم به خلط[2]

---

(١) ديوان ابن زيدون/ ٢٨٩ ، الوخط: انتشار المشيب . مادة (وخط) القاموس / ٨٩٣ . المفرق: بفتح الراء وكسرها: وسط الرأس، أو الطريق فى شعر الرأس. مادة (فرق) القاموس/ ١١٨٣.

(٢) ديوان ابن زيدون صـ٢٩٢ ــ ٢٩٣ ، السبط: السهل، السخى. مادة (سبط) القاموس/ ٨٦٣ ، الميسم: المكواة، علط: وسم فى العنق. القاموس/ ٨٧٦، شعشع: مزج، الأحم: الأسود من كل شىء. مادة (حم) القاموس/ ١٤١٨ .

لقد رسم ابن زيدون بكلماته المعبرة صورة قوية لما يعتلج فى جنبات نفسه التواقة إلى الحرية، فبدأ أبياته بالتأكيد (وإنى لراج) ساعيا إلى الخلاص من حياة الذل والقهر والتشرد، إلى حياة الحرية والانطلاق ٠

كما عمد إلى توظيف المستوى الزمنى للأفعال عن طريق الفعل المضارع فى قوله: "تعود، تعفو، تمحى، تختصنى، يلوح، يفى" للتعبير عن ديمومة واستمرار هذا المطلب فى نفسه إلى أن يتم العفو عنه، وجاء التشبيه فى البيت الأخير ليؤكد أن هذه الشفاعة يبقى أثرها الطيب فى نفسه كما يبقى أريج العنبر فواحا إذا اختلط به المسك ،إلا أن الشاعر لم يذكر هل استجاب صديقه أبوبكر لطلبه فى التوسط لدى الأمير أن يختصه بالشفاعة أم لا؟٠

ولكن على أرجح الأقوال فقد ظل الأمير أبوالحزم بن جهور مصما عنه أذنيه إلى أن "ألقى بنفسه على ولده أبىالوليد بن جهور فى حياة والده أبىالحزم، فشفع له، وانتشله من نكبته، وصيره من صنائعه"(١)٠

ويحفظ ابن زيدون لأبىالوليد بن جهور هذا الجميل، فيمدحه بقوله:

إن من أضحى أباه جهور ∴ قالت الآمال عنه ففعل

إلى أن يقول:

أنا غرس فى ثرى العلياء لو ∴ أبطأت سقياك عنه لذبل
لى ذكر بالذى أسديته ∴ نابه ود حسود لو خمل(٢)

وأخيرا نجح ابن زيدون فى مسعاه فعفا عنه الأمير، ولم تمضى أشهر حتى مات الأمر ابن جهور وتولى الحكم ابنه أبوالوليد صديق الشاعر الحميم، فبدأت صفحة جديدة من حياة ابن زيدون، معبرا عن ذلك بقوله إلى أبىالوليد:

كلنا بلغ ما أمله ∴ فابلغ الغاية من كل أمل(٣)

تلك هى المحاور الفكرية التى دار حولها استعطاف الحاكم فى شعر ابن زيدون، وهى على هذا النحو ترسم صورة واضحة المعالم لهذا الشاعر الأندلسى الذى

---

(١) إعتاب الكتاب لابن الآبار / ٢٠٨ ٠
(٢) ديوان ابن زيدون صـ٣٤٠ ، ٣٤٢ ٠
(٣) ديوان ابن زيدون صـ٣٤٣ ٠

اكتنفته نار الظلمة وراء الجدران، واكتوى بنار التجربة القاسية، فحمل قيثار شعره مرتلا عليه استعطافه للحاكم ليثبت آى براءته، بأشعار تنضح ألما وحسرة، وشكوى وعتابا، ويأسا ورجاء، وشموخا واستعلاء ٠

ولولا هذه المحنة التى ألمت به، وعاشها بكل مشاعره وجوارحه، لكانت دوحة حياته الإبداعية شجرة عارية لا فائدة منها٠

وإذا كان ابن زيدون قد وفق إلى حد بعيد فى رسم صورة له واضحة المعالم من خلال مضامين استعطاف الحاكم فى شعره، فلم تكن الفكرة أداته الوحيدة فى رسم تلك الصورة، وإنما أبرزها مستعينا بوسائل الأداء الشعرى المنوعة من بناء لغوى، وتصوير فنى، وموسيقى شجية، وتفصيل ذلك فيما سيفصح عنه المبحث التالى٠

المبحث الثالث

السمات الفنية لشعر استعطاف الحاكم عند ابن زيدون

أولا:البناء اللغوى وعلاقته بالتجربة الشعورية٠
ثانيا: الصورة الشعرية٠
ثالثا: الموسيقى٠

أولا: البناء اللغوى

اللغة قالب تصب فيه تجربة الشاعر من خلال الألفاظ وإيحاءاتها، ووسيلة تعينه على التعبير عن مكنونات نفسه، وغاية جمالية تدرك من خلال صوره المبتكرة ، "ونحن حينما نقول هنا لغة الشعر لا نقصد ما يمكن أن يفهمه المفسر اللغوى حسب المفهوم المعجمى، أو ما يمكن أن يفهمه النحوى من حيث علاقة اللغة اشتقاقا وتركيبا، إنما نعنى بلغة الشعر طاقة القصيدة الشعرية وإمكاناتها"(١).

فشاعرية اللغة وارتباط شحناتها الانفعالية بتجربة المبدع، مهمة جدًا فى تقييم قدراته على التعبير عن ذاته ومشاعره، فاللغة فى الشعر لها قيمة جمالية ذاتية تكتسبها من ألفاظها الموحية، وتراكيبها الخاصة التى تؤثر فى نفس المتلقى، وتدفعه للتأمل والمشاركة الوجدانية لتجربة الشاعر، فهى "لغة بنيت على نسق الشعر فى أصوله الفنية والموسيقية، وهى فى جملتها فن منظوم منسق الأوزان والأصوات، لا تنفصل عن الشعر فى كلام تألفت منه"(٢).

فعلى الشاعر أن يترك لروحه عنانها بأن تحلق فى آفاق اللغة الشاعرة، فينتقى منها ما يلائم حالته النفسية المتباينة من فرح وحزن، وراحة وألم، فحسن الانتقاء يكسبه تميزًا عن غيره من الشعراء، خاصة حين يجتهد فى أن يضمن شعره ألفاظًا لها دلالات واسعة، وهذا ما سنوضحه إن شاء الله، من خلال الوقوف على المعجم الشعرى، وإيحائية الألفاظ الشعرية، ودلالات التراكيب الشعرية، والترديد اللغوى، والتناص، لدى ابن زيدون فى شعره الاستعطافى ٠

---

(١) لغة الشعر العربى الحديث د/ السعيد الورقى صـ٦٤ ٠
(٢) اللغة الشاعرة عباس محمود العقاد صـ٨ ٠

أ ـ المعجم الشعرى:

من الأمور البديهية أن لكل شاعر لغة متفردة إن على مستوى اللفظة أو التركيب أو على مستوى البناء، ومنذ العصور الأولى كان لكل شاعر مخترع لغة[١]، لأن الشعراء كما يقول الفراهيدى: "أنهم أمراء الكلام يصرفونه أنى شاءوا، ويجوز لهم ما لا يجوز لغيرهم من إطلاق المعنى وتقييده، ومن تصريف اللفظ وتعقيده، والجمع بين لغاته، والتفريق بين صفاته، واستخراج ما كلت الألسن عن وصفه ونعته، والأذهان عن فهمه وإيضاحه، فيقربون البعيد، ويبعدون القريب، ويحتج بهم ولا يحتج عليهم"[٢]، وبهذا يقترب الفراهيدى ــ الذى سبق عصره ــ من الموقف النقدى المعاصر الذى يؤكد "أن اللغة فن الشعر"[٣] وبذلك حق للشاعر أن تكون له لغته الخاصة، التى تعبر بدقة عن تجاربه الانفعالية فى لحظات التأسيس الشعرى ٠

ولا يتم تأسيس المعجم الشعرى بمعزل عن ذوق الشاعر ومزاجه[٤]، لأن استعمال مفردات معينة لدى شاعر معين يشير إلى أن حالة نفسية خاصة وراء هذا الاستعمال٠

ولذلك كان لكل شاعر معجمه الشعرى، وهو حصيلة تكوينه الثقافى، وقدرته الخاصة فى التقاط المفردة التى تعبر عن معاناته٠

وبالنظر فى شعر ابن زيدون الاستعطافى وجد أنه اتخذ لنفسه معجمًا شعريًا خاصًا،اعتمد فيه على تكرار بعض الدوال التى يفجر بها طاقاته الانفعالية القلقة التى تكتظ بها نفسه ٠

ولعل المتأمل فى شعره سيقف على هذه الدوال التى تنم عن انفعال مؤلم يتدافع فى نفسه ليظهر ذلك التدافع فى صور التضاد، والاعتداد بالذات، وصور الأسى والحزن، واستخدام الشاعر للعبارات المتشحة بالسواد، وتركيزه على

---

(١) مقدمة ديوان (لن) أنسى الحاج صـ١٤ ٠
(٢) منهاج البلغاء وسراج الأدباء حازم القرطاجنىصـ١٤٣، ١٤٤ ٠
(٣) نظرية البنائية فى النقد الأدبى د/ صلاح فضل صـ٣٤٧ ٠
(٤) الشعر كيف نفهمه ونتذوقه اليزابيث درو صـ٨٧ ٠

بعض مظاهر الطبيعة التى كانت أحد ملاذاته فى سجنه ووحدته، ومصدر راحته، وسنحاول الوقوف على تلك الدوال التى تفصح عن تلك الحالة.

فحديث ابن زيدون عن تأزمه النفسى فى سجنه تبرز صور التضاد واضحة فى ألفاظه وأسلوبه محدثة عن ماضى سعيد، وحاضر تعيس، ومعبرة عن إبراز الصراع النفسى لدى الشاعر فى قوله:

أما وأرتنى النجم موطىء أخمصى ∴ لقد وطأت خدى لأخمص من يخطو[1]

فبعد أن كان يطأ النجم بأخمصه، أمسى خده موطئا لمن يخطو، وذلك واضح من خلال الألفاظ: "النجم، موطئ، أخمصى، وطأت خدى، أخمص، يخطو".

وفى معرض حديثه عن الزمان وتقلباته، وتغيره من حال إلى حال، تبرز بنية التضاد بين "يجرح: ياسو" و"إغفال: احتراس" و"أجدى: أكدى" و"عز: ذل" و"سراة: خساس" فى قوله:

ما على ظنى بأس ∴ يجرح الدهر وياسو
وقد ينجيك إغفال ∴ ويرديك احتراس
ولكم أجدى قعود ∴ وأكدى التماس
وكذا الدهر إذا ما ∴ عز ناس ذل ناس
وبنو الأيام أخياف ∴ سراة وخساس[2]

وعندما يتخذ ابن زيدون من المدح وسيلة لاستعطاف الحاكم يساعده معجمه الشعرى فى التعبير عن معانى العدل، ونصرة المظلوم، والحفاظ على الجوار، والهيبة التى ملأت النواظر، والمسامع فى آفاق الأرض، والحرمان من النوم لأجل الاعتناء بالرعية، حتى أن صروف الدهر غابت، وطيور القطا نامت بأمن واطمئنان، فيقول:

ولئن عجبت أن أضام وجهور ∴ نعم النصير فقد رأيت عجيبا
من لا تعدى النائبات لجاره ∴ زحفا ولا تمشى الضراء دبيبا[3]

---

(١) ديوان ابن زيدون صـ٢٩٠ .
(٢) نفسه صـ٢٧٣ ، ٢٧٤ .
(٣) ديوان ابن زيدون صـ٣٢٦، ٣٢٧ .

وقوله:

مـــلأ النـــواظر صـــامتًا ولربمـــا ∴ مـــلأ المســـامع ســـامعًا ومجيبـــا[1]

وقوله:

كـم أشـترى بكـرى عينيـه مـن سـهر ∴ هـدوء عـين الهـدى فـى ذلـك السـهر
فى حضرة غاب صرف الدهر خشيته ∴ عنهـا ونـام القطـا فيهـا فلـم يثـر[2]

فجاءت الألفاظ: "أضام، النصير، لا تعدى، النائبات، جاره، الضـراء، مـلأ، النواظر، صامتا، المسامع، سامعا، مجيبا، كرى، عينيه، سهر، هـدوء، صـرف، الدهر، نام، القطا، لم يثر" مناسبة للأفكار التى أرادهـا الشـاعر، ومعبـرة عـن مشاعره وأحاسيسه.

وعندما يعتد بذاته، ويفخر بنفسه فى معرض هجومه على أعدائه وحساده يناسبه من الألفاظ: "الليث، البدر، الروض، طيبه، الماء، ضـوء النهـار" وفـى المقابل يأتى معجمه الشعرى معبرا عن عدم اعتداده بهؤلاء الحساد فتأتى الألفاظ معبرة عن هذه المعانى بقوله: "الجحاش، نهيقها، النباح، كـلاب، ضـره، طـنّ، ذباب، كدرة، ضباب" وذلك من خلال قوله:

وقـد تسـمع الليـث الجحـاش نهيقهـا ∴ وتعلـى إلى البـدر النبـاح كـلاب
إذا راق حسـن الـروض أو فـاح طيبـه ∴ فمـا ضـره أن طـن فيـه ذبـاب
فقـد تتفشـى صـفحة المـاء كـدرة ∴ ويغطـو علـى ضـوء النهـار ضـباب[3]

وعندما يتحدث عن معاناته فى سجنه، ووصف نفسيته البائسة التى حولت حياته إلى آلام وعذاب، فجعلت الشيب يكسو رأسه، وجعلت الشباب يفارقـه قبـل الأوان، يناسبه من الألفاظ: "لج ، الصبا، عدوانها، كسا، العذار، مشيبا، محقـت، تمام، ذوى، غصن، الشباب" فيقول:

مـالى وللأيـام ؟ لج مـع الصـبا ∴ عـدوانها فكسـا العـذار مشـيبا
محقـت هـلال السـن قبـل تمامـه ∴ وذوى بهـا غصـن الشـباب رطيبـا[4]

---

(١) نفسه صـ٣٢٨ .
(٢) نفسه صـ٢٥٦، ٢٥٧ .
(٣) ديوان ابن زيدون صـ٣٨٢، ٣٨٣ .
(٤) ديوان ابن زيدون صـ٣٢١ .

فقد أظهرت تلك الألفاظ لونًا قاتمًا وفقًا لرؤية الشاعر وشعوره النفسى.

ومن الألفاظ التى تتصل بهذا المعنى مثل: "لوعة، قادحة، نار، الأسى، مشيبى، طائر، الشرر، الرزايا، غمرا، المكروه، حوادث، ، غرر" وذلك عند يعبر عن الحوادث التى داهمته، والرزايا التى غمرته، دون ارتقاب، فحطمته وهو آمن قرير فى غفلات الدهر، فيقول:

ها إنها لوعة فى الصدر قادحة ∴ نار الأسى ومشيبى طائر الشرر
يا للرزايا لقد شافهت منهلها ∴ غمرا فما أشرب المكروه بالغمر
حوادث استعرضتنى ما نذرت بها ∴ غرارة ثم نالتنى على غرر[1]

وجاء اتكاؤه على الأسلوب الإنشائى القائم على الاستفهام والنداء ليجذب إليه انتباه المتلقى، ويبين عظم المصائب والرزايا التى لاحقته، وأصبحت ملازمة له لا تنفك عنه، فيرق لحاله ويشاركه مشاعره وأحاسيسه.

أما الألفاظ التى تتصل بالطبيعة بأنواعها المختلفة كان لها نصيب موفور فى تجاربه الشعرية، مثل: الغمام، البرق، النجوم، السبع الثريا.

وذلك عندما لجأ الشاعر إلى هذه الظواهر الطبيعية هروبا من قسوة الواقع الخارجى الذى أصبح احتماله أكثر من أن يطاق بعد أن انقطع ما بين الشاعر وبين أميره، فلا عجب إذن أن تمتزج مشاعر القربى بينه وبين الطبيعة، وينصهر لديه الحنين والتمرد فى بوتقة إبداعية واحدة،[2] فيقول :

ألم يآن أن يبكى الغمام على مثلى؟ ∴ ويطلب تارى البرق منصلت النصل
وهلا أقامت أنجم الليل مأتما ∴ لتندب فى الآفاق ما ضاع من تتلى
ولو أنصفتنى وهى أشكال همتى ∴ لألقت بأيدى الذل لما رأت ذلى[3]

وتأتى الأفعال المضارعة التى تدل على التجدد والاستمرار فى الطلب من الطبيعة فى الوقوف بجانبه، بعد أن فقده فى دنيا الناس، مثل: "يبكى، يطلب، تندب".

---

(١) نفسه صـ٣٥٤ .
(٢) واقع القصيدة العربية د/ محمد فتوح أحمد صـ١١٤ .
(٣) ديوان ابن زيدون صـ٢٦٢ .

وعلى النقيض تأتى الأفعال الماضية لتعبر عن ماضيه السعيد، ومكانته السامية التى فقدها بسبب سجنه مثل: "أقامت، ضاع، أنصفتنى، ألقت، رأت" وكأنه يهيب بالطبيعة أن تشاركه محنته فى الحاضر على ما ضاع منه فى الماضى٠

وإلى جانب الطبيعة الصامتة يبرز فى معجمه ألفاظ الطبيعة المتحركة التى كانت خير معين للشاعر فى التعبير عن معاناته فى سجنه، وضجه بالشكوى إلى أميره، ومن هذه الألفاظ: "حمائم، جواد، جياد، تصهاله" فى قوله:

حمائم شكوى صبحنك هوادلا ∴ تناديك من أفنان آدابى الهدل
جواد إذا استن الجياد إلى مدى ∴ تمطر فاستولى على أمد الخصل
ثوى صافنا فى مربط الهون يشتكى ∴ بتصهاله ما ناله من أذى الشكل(١)

فابن زيدون فى هذه المحنة يلقى بنفسه فى أحضان الطبيعة، ويعيش فى ظلالها، لأنها ملاذه فى هذا الوقت الصعب، ويسقط عليها ما فى ذاته من حزن ووجع وغربة، فتتشح الطبيعة بالسواد الحالك، إلى الدرجة التى ضج فيها شعره بالشكوى إلى أميره نادبًا كما تندب الحمائم، أو كالجواد المربوط فى مكان ضنك، وقد شددت قوائمه بالأغلال فشكا بتصهاله ما أصابته به القيود والأغلال، ومع ذلك يصم أذنيه عن رسائله المتتالية، ويضعها فى يد ظالمة٠

وتأتى دلالة الصوت فى هذه الألفاظ: "صبحنك، هوادلا، تناديك، استن، تمطر، يشتكى، تصهاله" لتلعب دورا هاما فى الكلمة الشعرية تفسيرًا ومضمونًا، فتمنحها تجسيدًا صوريًا، ورنينًا إيقاعيًا، وتعكس تجربة الشاعر الانفعالية بتكثيف شعورى ودلالى معًا ٠

وكان لألفاظ وعبارات الاستشفاع حضور قوى فى شعره، فهى تعبره عن نفسيته المنهارة فى سجنه، والمتقلبة بين اليأس والرجاء، مخاطبًا ابن جهور بقوله مادحًا :

لك الشفاعة لا تثنى أعنتها ∴ دون القبول بمقبول من العذر(٢)

---

(١) نفسه صـ٢٦٧ ٠
(٢) ديوان ابن زيدون صـ٢٦٠ ٠

وقوله له متوددًا:

للشفيع الثناء والحمد فى صو ∴ ب الحيا للرياح لا للغيوم[١]

وقوله له متذللاً:

فاشفع أكن مثل ممطور ببلدته ∴ جذلان بالوطن المألوف والوطر[٢]

وهكذا: فقد جاء معجمه الشعرى متنوع فى أبعاده، ورؤاه، وألفاظه، وتراكيبه، أراد من خلاله أن يلوح به للمتلقين عن مقدرة شعرية فذة، وبراعة فى الصياغة الفنية التى احتوت العمق النفسى لتجربته الاستعطافية .

ب ـ إيحائية اللفظ الشعرى :

من المعلوم أن اللفظة عماد النص الشعرى، فهى ترتبط ارتباطًا وثيقًا بمعاناة الشاعر أثناء عملية الخلق الفنى، فتخرج فى لحظات الإبداع متوهجة، وبها "يتبدى ألق اللغة، وتلفها هالات إيحائية مضيئة، فتثمر عطاء سحريًا يتمثل فى صور شعرية مدهشة، وأنساق موسيقية تتفتح على وجدان المتلقى لأنها تخلق حالاتها ولا تصفها من الخارج، وتلك الحالات تتم فى تشكيلات لغوية ذات ارتباطات داخلية"[٣] .

إنها" إيحاءات تتفجر مع كل قراءة جديدة، وأبعاد رمزية متجددة وراء الكلمات، وتبث الحياة والاستمرارية فى بنية النص، وتخرجه من النفعية إلى الجمالية"[٤] .

فاللفظة الموحية فى البيت هى التى تستطيع أن "تنقل معنى البيت كاملا من أفق إلى أفق أوسع، بحيث لو رفعنا هذه الكلمة وغيرناها لشىء يقاربها فى معناها، لفقد المعنى كثيرا من سعته وقوته وضاع الجو فى القصيدة"[٥].

---

(١) نفسه صـ٢٨٣ .
(٢) نفسه صـ٢٦١ .
(٣) لغة الشعر العربى . عندنا قاسم صـ١٥٧ .
(٤) الشعر الفلسطينى المعاصر د/ عبدالخالق العف صـ٤٦ .
(٥) محاضرات فى شعر على محمود طه . نازك الملائكة صـ١٦١، ١٦٢ .

فالشاعر يضفى روحه على بنية النص من خلال الألفاظ الإيحائية التى تكتسب روحه ومشاعره، فتتولد الإيحاءات الخاصة به، والمعبرة عن شخصيته، وتكسبه تميزا عن غيره.

وفى شعر ابن زيدون الاستعطافى ارتبطت الألفاظ الموحية ارتباطا وثيقا بشخصيته، وروحه وحالته النفسية كذلك، فانبثقت الإيحاءات مشعة لارتباطها بالمدلول الذى تولد عن هذه الطاقة المكتسبة ابتعاد اللغة عن دلالاتها النفعية، واكتسابها روحا جديدة من خلال القالب النسقى الجديد الذى وضعت به، ففارقت لغتها المعيارية، وحلقت فى تهويمات الصور التى تضامت مع بعضها البعض، لتعطينا إيحاءات مكثفة منحت النص فضاءات أرحب، فالتجربة التى عاشها الشاعر أكسبت ألفاظه الشعرية أبعادًا إيحائية عميقة، ارتبطت ارتباطًا وثيقًا بالمعاناة التى يشعرها أثناء عملية الإبداع الفنى، هذه الإيحاءات يتم تأويلها من خلال بنية النص وسياقه الداخلى، ويضيئها المخزون الثقافى للمتلقى .

وهذه التجربة الحية التى عايشها الشاعر بنفسه وكان جزءا من صناعة الحدث، عبر فيها عن معاناته وعذاباته فى سجنه، وتقلبه بين اليأس والرجاء طلبًا للشفاعة، والانعتاق مما هو فيه، فلا غرابة أن تكسبه تجربة المحنة شعورًا باليأس والهوان، والمعاناة، انعكس بقوة على فضاء النص فأكسبه قوة وعنفوانا، من خلال ألفاظه الموحية، وحلقت بنا فى آفاق أوسع وأرحب.

فعندما أراد أن يعبر عن معاناته فى سجنه، أبدت الألفاظ هذا الشعور النفسى المثقل، على نحو بديع حين قال:

ومعنّى من الضنى بهنات ∴ نكآت بالكلوم قرح الكلوم(١)

فاللفظة "معنّى" على ما فيها من إيحاءات دلالية تبدأ من دلالات حروفها التى تتكون منها: من ضم لأولها، ثم فتح خفيف لأوسطها، يتبعه فتحة مشددة على حرف النون الذى يدل على الشدة والجهد ــ لتغلب خصائص الرنين فى هذا الحرف ــ هذا الجهد زادته الشدة شدة، وضاعفت إيحاءه مما أوحى لنا بمدى

(١) ديوان ابن زيدون صـ٢٨٢ .

المعاناة التى يمر بها الشاعر من كثرة المصائب المتلاحقة التى أدمت جروحه قبل أن تلتئم، وكأنها موكلة بها٠

ومن هنا تأتى أهمية اللفظة الموحية فى مفارقتها لمحدودية دلالتها، إلى أفق الإيحاء المكثف الذى حلق بنا فى أفق هذا البيت، مما يكشف عن توتر نفسى حاد لدى الشاعر٠

هذه المعاناة التى فرضت نفسها على رؤية الشاعر ، انعكست على اختياره اللاشعورى للألفاظ التى تضمنها شعره، فأوحت بهول المصيبة وشراستها، وصورت لنا ما وصل إليه حال هذا الشاعر بعد المكانة والرفعة وحسن المنزلة، من خلال ألفاظ حملت هذه الإيحاءات، حين قال:

ألا هل أتى الفتيان أن فتاهم ∴ فريسة من يعدو ونهزة من يسطو
وأن الجواد الفائت الشأو صافن ∴ تخونه شكل وأزرى به ربط[1]

هذا الحالة المؤسفة التى وصل إليها هذا الشاعر لم نكن لنستشعرها لولا استخدامه للفظتى: "نهزة، تخونه" فالأولى: تدل انه أصبح فرصة سائغة لكل من يريد الاعتداء عليه، والثانية: توحى بمدى المعاناة النفسية التى ألمت به بعد أن ألحق به العيب وكبلته القيود، وأذلته الأغلال٠

هاتان اللفظتان جعلتنا نحلق فى هذا الفضاء النفسى الرحب، وجعلتنا نرسم فى مخيلتنا صورة الفريسة التى أصبحت متاحة أمام كل معتد أثيم، والقيد الذى ذمه وعابه، وكبله عن الحركة التى طالما سعد بها، وصال وجال من خلالها فى محافل السياسة والأدب، لم تكن لتحدث لو استبدلتا بأخرى تؤدى المعنى، ولكنهما لا تحملان ذات الإيحاء القوى٠

وتتابع الصور الموحية بقوة بتتابع الألفاظ الموحية التى نقلتنا إلى الجو النفسى الذى يعيش فيه ابن زيدون، ورسمت لنا صورته وهو يمعن فى التودد

---

(١) ديوان ابن زيدون / ٢٨٧ ٠

للأمير علّه يروى ظمأه، ويسبغ عليه من ظله، وينصرف سمعه عن الإصغاء لأكاذيب الوشاة الواضحة البطلان، حين قال:

أئن زعم الواشون ما ليس مزعما ∴ تعذّر فى نصرى وتعذِر فى خذلى(١)

فلفظة "تعذر" بما فيها من إيحاءات دالة، عضدها التكرار فى الشطر الثانى بتسهيل الذال "تعذر" فتشديد الذال فى قوله "تعذّر" فى الشطر الأول يوحى بمدى إسراع الأمير فى إصغائه لأكاذيب الوشاة فيقصر فى شد أزره، وتسهيلها فى الشطر الثانى يوحى بمدى تهاون الأمير فى تلمس الأعذار له، فيتخلى عنه ٠

وكأن اللفظة كاميرا متنقلة تنقلنا حروفها من مشهد إلى آخر٠

ترى لو تم استبدال هذه اللفظة بغيرها من الكلمات التى تحمل نفس المعنى، فهل كانت تملك القدرة على التحليق بنا فى فضاء النص بهذه الصورة؟

ومن مشهد لآخر ترق الألفاظ وتصبح أكثر ليونة تبعا للموقف النفسى الذى انبثقت منه، وتبرعمت فيه فاستوت على سوق نسقها اللغوى، فمن شدة الألفاظ وقوة وقعها فى النماذج السابقة، إلى خفوت أصواتها ورقة حروفها فى موقف استدعى ذلك ، حينما توجه لأمه بخطاب رقيق حانٍ عليها، بعد أن غالبتها الدموع، ولكنها دموع ليست كأى دموع، إنها الدموع الهتانة الغزيرة التى أوهت بجفونها من كثرة ما ذرفت، حنيناً إليه ، وقلقاً على مصيره ، فيدعوها إلى الصبر، والتأسى بمن أصيب قبله بهذه الأرزاء٠

إنها حالة مؤلمة تضافرت فى رسمها إيحاءات متعددة، فكلمة "مقتولة" التى فارقت مصاحبها اللفظة وهو ذهاب النفس، وانحرفت بالتوقع الدلالى للمتلقى لكلمة "الأجفان" حين تبعتها فوراً وهى ملازمة البكاء لها ، مما أدى بها إلى نضوب الحياة فى هذه الأجفان من كثرة ما ذرفت من دموع، ثم تكاثف الإيحاء بشدة المعاناة والألم حين جاءت لفظة "والهًا" توضح سبب هذا الدمع الشديد الذى

---

(١) ديوان ابن زيدون صـ٢٦٨ ٠

غير معالم الأجفان ، وهو شدة الوجد، بسبب السقوط المريع له، والتى توحى به كلمة "هوى"، فيقول:

أمقتولة الأجفان مالك والها ∴ ألم تـــرك الأيـــام نجمـــا هـــوى قبلـــى(١)

ومن هنا تبرز القيمة الجمالية والدلالية جراء استخدام الألفـــاظ الموحيـــة ، "فكل كلمة هى وجه من وجوه التجارب الإنسانية، ومن ثم فإن لكل كلمـــة طعمًـــا خاصًا ليس لكلمة أخرى، لأن التلاحم بين اللغة والتجربة يجعل لكل كلمـــة كيانًـــا متفردًا عن كل ما عداه"(٢) .

جـ- دلالة التراكيب اللغوية:

يقتضى البحث فى دلالة التراكيب الشعرية أن يتقصى "العلاقات بين الرموز اللغوية ومدلولاتها"(٣) الجديدة التى تستمد روحها من روح الشاعر ووعيه ، وتعبر عن رؤيته وذاته، فتخرج بصورة تشكيلات تركيبية تحفل بما ازدحم فى مخيلته من صور، ومفارقات، ومتناصات.

ولفهم تجربة الشاعر الشعورية لابد من الوصول إلى استكناه عمن هذه التركيبات اللغوية، وما يربطها من علائق دلالية ونحوية، وذلك من أجل تحقيق فهم أشمل لهذه الجمل التى هى أساس بنية النص، وأساس تجربة الشاعر الشعورية، وفيما يلى إشارات متفرقة لبعض القضايا التى تمس النظام التركيبى للغة شعر استعطاف الحاكم عند ابن زيدون، باعتبارها الركيزة الأساسية لفهم الرؤيا الشعرية التى يقدمها الخطاب الشعرى، والتى تحاول الغوص فى عمق هذه التراكيب وما حصل بها من مفارقة للنظام النحوى المتعارف عليه من ألفاظ متواردة، وحسن تعليل، وتقابل وتضاد، واستفهام ، وما أوجده ذلك من توالد دلالات جديدة للنصوص الشعرية التى عبرت عن تجربة حية لشعر ابن زيدون الاستعطافى.

---

(١) ديوان ابن زيدون صـــ٢٦٤ .
(٢) الشعر العربى المعاصر قضاياه وظواهره الوضعية والفنية د/عزالدين إسماعيل صـــ١٥٦ .
(٣) الشعر الفلسطينى المعاصر عبدالخالق العف صـــ٥٦ .

فقد تناول ابن زيدون المعنى الواحد أكثر من مرة وعرضه فى صور مختلفة بأبيات شعرية تباينت ألفاظها، وتشابهت معانيها، وذلك عندما طالت معاناته، وأسلم نفسه إلى الاستعطاف طلبًا للصفح والغفران، فيقول:

هبنى جهلت فكان العلق سيئة ∴ لا عذر منها سوى أنى من البشر[١]

ويقول فى قصيدة أخرى:

ومثلى قد تهفو به نشوة الصبا ∴ ومثلك من يعفو ومالك من مثل[٢]

هذان البيتان وإن اختلفت ألفاظهما إلا أنها تشابها فى المعنى، فالشاعر يعتذر لابن جهور عما نسب إليه، ويعلل لذلك الجهل أنه من البشر، والبشر عرضة للأخطاء.

وهذا التوارد فى الألفاظ يثرى الدلالات التركيبية داخل القصيدة التى تأتى متوافقة مع حالته النفسية، والتى تتطلب فيها الإلحاح فى طلب الصفح والغفران من خلال هذه الألفاظ المتواردة ذات المعانى المتعددة.

ويأتى حسن التعليل ليثرى خياله التفسيرى ، وليعلل للآخرين من الأعداء والوشاة ، سبب نكبته بالسجن على رغم ما يتسم به من عظمة ونبوغ، محاولاً تبريرها بما يقع فى الحياة من أحداث، فيقول:

ولا يغبط الأعداء كونى فى السجن ∴ فإنى رايت الشمس تحضن بالدجن
وماكنت إلا الصارم العضب فى جفن ∴ أو الليث فى غاب أو الصقر فى وكن[٣]

فالشاعر لا يقنع بالمعنى المتداول حتى يضيف ما يوشيه ويجمله ويجعله أعلق بالنفس، فإن وضع فى السجن فمثله مثل الشمس عند تعتريها الغيوم إلى حين ، وكالسيف عندما يوضع فى غمده ثم يأتيه يوم فيسل ويشرع على الأعداء، وكالليث يلبد فى الغاب، ثم يتهيأ بعد ذلك إلى الافتراس . مما يدل على خياله الخصب، ووجدانه الحى، وعاطفته اليقظة.

ويتوسل ابن زيدون بالمقابلة "ليكسب المعنى الشعرى عمقا، وينفث حوله شيئا من التوتر"[٤] المحتبس فى أعماقه من خلال مقابلته بين أيام عزه ورفعته،

---

(١) ديوان ابن زيدون صـ٢٦٠ .
(٢) نفسه صـ٢٦٩ .
(٣) ديوان ابن زيدون صـ١٠٠ .
(٤) قراءة الشعر وبناء الدلالة د/ شفيع السيد صـ١٧ .

حين كان يطأ النجم بأخمص ، وبين أيام ذله وهوانه حين أمسى خده موطئا لمن يخطو:

أما وأرتنى النجم موطئ أخمص ∴ لقد أوطأت خدى لأخمص من يخطو[1]

فهذه المقابلة كشفت عن معاناة كامنة عميقة فى نفس الشاعر.

وتأتى المقابلة أيضا من خلال حديثه عن الدهر المتقلب الاحوال فى قوله:

وقد ينجيك إغفال ∴ ويرديك احتراس
ولكم أجدى قعود ∴ ولكم أكدى التماس[2]

فقد قابل بين "ينجيك إغفال: يرديك احتراس" وبين "أجدى قعود: أكدى احتراس".

مما أكسب الأبيات إيقاعًا ونغمًا موسيقيًا يتناسب مع شعور الشاعر المتوتر.

ويأتى الطباق فى شعره الاستعطافى ليبرز من خلاله جانبا من حالته النفسية القلقة، وليفجر تلك الطاقة المحتبسة فى نفسه فى صورة التضاد الذى لم يكتف فقط بالصورة الزخرفية، وإنما تجاوز ليفصح لنا عن تجربة نفسية تجتاح قلب الشاعر، وذلك فى قوله:

وبنو الأيام أضيا ∴ ف: سراة وخساس
يلبد الورد السبنتى ∴ وله بعد افتراس[3]

فقد طابق الشاعر بين : "سراة: خساس" وبين "يلبد: افتراس".

فاستخدام الشاعر للتضاد يبرز حالة الصراع النفسى التى يعانيها الشاعر على شكل إيقاعات موسيقية حزينة.

وقد يخرج ابن زيدون عن المألوف فى حذف الروابط النحوية، حيث حذف حرف العطف الذى يربط بين الصفات إذا تعددت، وكأن حرف الواو سيبطئ توصيل المعلومة للمتلقى، والتى يحرص الشاعر أشد الحرص على توصيلها

---

(١) ديوان ابن زيدون صـ٢٩٠.
(٢) ديوان ابن زيدون صـ٢٧٤.
(٣) ديوان ابن زيدون صـ٢٧٤ ـ ٢٧٦.

بسرعة، فعمل على اختصار الزمن بهذا الحذف، فجاءت الصفات "غُفْل، خامل، ضائع" متتالية والتصقت بالموصوف حد التجسد، هذا النسج التركيبى ولد لدينا دلالات استقيناها من خلال حركة المفردات فى الجملة، فقد أشارت هذه الحركة بقوة إلى التجربة الشعورية التى فرضت نفسها على النص، من شعور بالإقصاء والإهمال والخمول بعد أن كان متسمًا بالرفعة والنباهة، وحدة الذكاء، فيقول:

أمثلى غُفْل خامل الذكر ضائع ∴ ضياع الحسام العضب أصداه الغمد(١)

ويستخدم أسلوب التقديم والتأخير فى تركيبه للمفردات فى الجملة، حيث قدم الخبر على المبتدأ فى انحراف دلالى واضح عن النسق النحوى فى قوله: "لك النعمة" هذا الانحراف ولد دلالات كثيرة على أهمية مكانة هذا الصديق فى نفس الشاعر، والتى لم تكن لتتبين لولا تقديمه شبه الجملة والمتمثل فى الجار والمجرور، وإلحاحه أن يأتى قبل المبتدأ فى قوله:

لك النعمة الخضراء تندى ظلالها ∴ على ولا جحد لدى ولاغمط
ولولاك لم تتقب زناد قريحتى ∴ فينتهب الظلماء من نارها سقط(٢)

وهذا التقديم له دلالة واضحة على عمق المشاعر الإنسانية الجميلة التى يكنها الشاعر تجاه هذا الصديق، حيث قصر عليه نعمه العديدة وأياديه السابغة التى ترف ظلالها عليه فلا يستطيع إنكارها، فهو سبب ذكاء قريحته التى جددت غواشى الجهل، وهتك نورها أستار الظلام ٠

وجاءت هذه الألفاظ: "لك النعمة الخضراء"، و"ينتهب الظلماء من نورها سقط" فى تركيب دلالى رائع يشع إيحائية بمدى تعلق ابن زيدون بهذا الصديق٠

وفى نصوص أخرى تكتنز بالدلالات النفسية التى أوجدها الاستفهام الذى خرج من معناه الحقيقى إلى معان أخرى على سبيل المجاز تفهم من السياق، وتعكس مدى الحزن والمعاناة التى يلاقيها الشاعر فى سجنه، ومن ذلك قوله مستعطفًا:

أفصبر مئين خمسا من الأيا ∴ م ناهيك عن عذاب أليم؟(٣)

---

(١) ديوان ابن زيدون صـ٣٦٤ ٠
(٢) نفسه صـ٢٨٨ ٠
(٣) ديوان ابن زيدون صـ٢٨٢ ٠

وقوله:

فمـا لـك لا تختصـنى بشـفاعة ∴ يلـوح علـى دهـرى ليسـمها علـط[1]

فالاستفهام فى هذين البيتين خرج من معناه الحقيقـى إلـى الاسـتعطاف والاسترحام٠

وهذا الإلحاح على السؤال من قبل الشاعر يشى بدلالات متعددة عن الحالة النفسية التى يعانى منها٠

فإثارة الأسئلة تثرى النص حتى ولم يقدم عليها أجوبة، ويكفى الشاعر أن يحرك وعى المتلقى للتفكير فيها، ومحاولة الإجابة عليها٠

وتأتى الجملة الاعتراضية فى السياق التركيبى لدى الشاعر ابـن زيـدون لتضفى على معناه القوة والتأكيد، والحيوية والإيحاء، ولتضيف إليه بعدا جديدا لا يمكن أن يفهم إلا به ، ومن قوله معرضًا بأعدائه من الحسـاد والوشـاة راجعًـا حقدهم عليه إلى بلوغه المدى وتقصيرهم دونه ، مما أوغر صدورهم عليه:

بلغـت المـدى ـ إذ قصـروا ـ فقلـوبهم ∴ مكـامن أضـغان أسـاودها رقـط[2]

وقوله مشبها إياهم بإخوة يوسف- عليه السلام- الذين اتهموا الذئب ظلما بافتراسه:

كـان الوشـاة ـ وقـد منيـت بـإفكهم ـ ∴ أسـباط يعقـوب وكنـت الـذيبا[3]

فلو حذفت الجملة الاعتراضية لا اختل المعنى الذى يعنيه الشاعر وبعد عن سياقه الدلالى، ولما أمكن الوصول إليه بغيرها٠

هذه التراكيب الدالة التى حفل بها شعر ابن زيدون الاسـتعطافى واكتنـزت مفرداتها بالإشعاعات المتألقة، والومضات الموحية، عكسـت تجربـة شـعورية خاصة عايشها ابن زيدون، فتميزت تراكيبها الشعرية المكونـة لبنيـة نصـوص

---

(١) نفسه صـ٢٩٢ ٠
(٢) ديوان ابن زيدون صـ٢٩١ ٠
(٣) نفسه صـ٣٣٠ ٠

شعره الاستعطافى بإضاءاتها المفرداتية أولا، ثم إلى امتدادها إلى إضاءة الجملة كلها .

د ـ الترديد اللغوى:

الترديد أو التكرار مترادفان لمعنى واحد ،يتم من خلاله تشكيل نسق أسلوبى خاص يعتمد على تكرار تراكيب صياغية متماسكة بنائيا، "وهو فى حقيقته إلحاح على جهة هامة فى العبارة يعنى بها الشاعر ،أكثر من عنايته بسواها .. فالتكرار يسلط الضوء على نقطة حساسة فى العبارة ،ويكشف عن اهتمام المتكلم بها"(١).

فهو بهذا يضع أيدينا على مفتاح الفكرة المتسلطة على الشاعر، ويمكن اعتباره ضوءا لا شعوريا نستطيع من خلاله استكناه أعماقه، وتسليط الضوء على حالته النفسية أثناء عملية إبداع القصيدة ، فهو يقوم "بوظيفة إيحائية هامة تعبر عن مدى كلف الشاعر واهتمامه بالمعنى الذى يسوقه، ومدى رغبته فى التأكيد عليه"(٢) .

فقدرة الشاعر التشكيلية، وعمق تجربته الشعورية، وإحساسه بالقيمة الإيحائية والدلالية للألفاظ التى يكررها، يرفع النص على مرتبة الأصالة إن استطاع الشاعر أن يسيطر عليها سيطرة كاملة، وإلا ستتحول إلى لفظية مبتذلة(٣).

وفى شعر ابن زيدون الاستعطافى كثرت ظاهرة التكرار على اختلاف أشكالها اللفظية والتركيبية، فتكرار اللفظة فى شعره الاستعطافى أشبعت دوائر الخطاب الشعرى بظاهرة الترديد اللفظى التى أثرت دلالات النص، وعمقت معانيه وإيحاءاته ، فاللفظ المتكرر يشى بما يلح على فكر الشاعر من صور، وما يعتمل فى نفسه من مشاعر تجاه حدث ما، ومن ذلك تكراره كلمة "أبى" فى قوله:

عليك أبا بكر بكرت بهمة ∴ لها الخطر العالى وإن نالها حط

---

(١) قضايا الشعر المعاصر، نازك الملائكة صـ٢٧٦ .
(٢) أبوفراس الحمدانى الموقف والتشكيل الجمالى ــ النعمان القاضى صـ٤٠٥ .
(٣) قضايا الشعر المعاصر نازك الملائكة صـ٢٦٤ .

أبى بعدما هيل التراب على أبى ∴ ورهطى فذا حيث لم يبق لى رهط[1]

فقد كرر الشاعر فى البيت الثانى كلمة "أبى" ليؤكد على فكرة معينة تدور فى نفسه، وهى الإحساس الشديد بالانتماء إلى هذا الصديق، واعتزازه بهذا الانتماء الذى لم يبق له فى محنته غيره، فجعله أبوه بعد وفاة أبيه، وكذلك تكراره كلمة "رهط" التى توحى بأنه أهله بعد فقدانه الأهل والأصحاب، فقد طغى إحساسه بروح الأبوة على ذاتيته المفردة التى انصهرت فى ذات صديقه (أبىبكر) وتشكلا معا جسمًا ونفسًا واحدة٠

وكما كثر فى شعره الاستعطافى تكرار الألفاظ، كثر أيضا تكرار الأدوات بأنواعها وبخاصة أدوات الاستفهام، فها هو ذا يستعطف ابن جهور طالبا منه أن يقيله من عثرته، فقد ذلّت قدمه رغم احتراسه، وإنه ليرجو النهوض منها، إلا أن أعداءه يزعمون أنها سقطة قاتلة لا نجاة منها، لذا فهو يتودد إلى حاكمه، ويتمنى أن يضم إلى أفضاله السابقة فضل الشفاعة التى تسل أحقاد خصومه،متكئًا على تكرار أداة الاستفهام "هل" فى الشطرتين الأولى والثالثة، فيقول:

هى النعل زلت بى،فهل أنت مكذب ∴ لقيل الأعادى إنها زلة الحسل؟
وهل لك فى أن تشفع الطول شافعا؟ ∴ فتنجع ميمون النقيبة أو تبلى[2]

هذا التكرار لأداة الاستفهام الذى جاء مجازيًا بمعنى التمنى، له دلالته وإيحاؤه الذى يأخذنا مباشرة إلى الجو النفسى الذى سيطر على تجربة الشاعر، من محاولته تبرئة ساحته أمام ابن جهور ونسب الأمر إلى الوشاة ، فهو من تدبيرهم، وتذكيره دائما بالشفاعة والصفح عنه فتنسل أحقاد خصومه، أو يبلى عذرا من مساعيه الحميدة٠

وكان للترديد التركيبى فى شعره الاستعطافى "خفة وجمال لا يخفيان ولا يغفل أثرهما فى النفس، حيث إن الفقرات الإيقاعية المتناسقة تشيع فى القصيدة لمسات وجدانية، يفرغها إيقاع المفردات المتكرر بشكل تصحبه الدهشة والمفاجأة، مما يجعل حاسة التأمل لدى القراء ذات فاعلية عالية"[1]٠

هاهو ذا يلح على تكرار مفردات خاصة تشى بعمق ما اعتمل فى نفسه عن معاناة وآلام بسبب ما آلت إليه من سجن وتشريد، لكن هذه المعاناة لم تمنعه من

---

(١) ديوان ابن زيدون صـ٢٨٨ ٠
(٢) ديوان ابن زيدون صـ٢٧٠، ٢٧١ ٠

الإلحاح فى مدح ابن جهور واستعطافه طلبا للصفح والغفران، فيردد أن السيادة تزدان بالصفح والغفران، كما يزدان الحسن بالحياء، وهذا ما حمله لنا تركيب "بهاءها، وبهاء الحسن" :

هبنى جهلت فكان العلق سيئة ∴ لا عذر منها سوى أنى من البشر
إن السيادة بالإغضاء لابسة ∴ بهاءها وبهاء الحسن فى الغفر[٢]

هذا الشعور باليأس والتقلب بين الأمل والرجاء كان يصاحبه طوال فترة سجنه، مما جعله يشعر بالشقاء فى ظل الأمير على حين سعد به جميع الناس، وهذا بالنسبة له من العجائب، وهو ما دلّ عليه التكرار فى قوله: "العبرة : العبر" ، فيقول:

حرمت منه وحظ الناس كلهم ∴ لهذه العبرة الكبرى من العبر[٣]

فهذا التكرار التركيبى يوحى بمعانى الحسرة والألم، وفقدان المعين٠

وقد فرضته الحالة النفسية التى تلف النص الشعرى، وتفرض نفسها بقوة على التجربة الشعورية، فتخرج الأنساق مكررة متباينة الدلالة، عميقة المدلول، توضح مقدرة الشاعر التشكيلية، وإدراكه لقيمة اللفظة التى تتسق فى نسق تركيبى يثرى النص، ويفتح أفق الاحتمالات لدى المتلقى٠

فها هو ذا يكرر كلمة "فرّ" ثلاث مرات فى بيت واحد على مسامع حساده لكى يلتمسوا له العذر فى فراره مضطرا من سجنه، فالفرار من الظلم والهروب مما لا يطاق من سنن المرسلين، فقد فر موسى ــ عليه السلام ــ حين هم القبط بالفتك به، فيقول:

وقد وسمونى بالتى لست أهلها ∴ ولن يمن أمثالى بأمثالها قط
فررت فإن قالوا الفرار إرابة ∴ فقد فر موسى حين هم به القبط[٤]

فالتكرار التركيبى فى البيت الثانى أوصل الدلالة التى يريدها الشاعر للمتلقى ٠

---

(١)لغة الشعر المعاصر. عمران الكبيسى صـ١٦٦ ٠
(٢)ديوان ابن زيدون صـ٢٦٠ ٠
(٣) نفسه صـ٢٥٧ ٠
(٤) ديوان ابن زيدون صـ٢٩٢ ٠

هذا الترديد للعبارات الموحية، والذى تردد فى شعر ابن زيدون الاستعطافى أبرز لنا حسن اختياره لما يناسبه من ألفاظ وعبارات تتردد متفقة مع رؤيته الخاصة، حيث عبر عن أفكاره ومشاعره بقوة من خلال بنية الترديد، التى احتلت مساحة واسعة فى شعره على اختلاف مدلولاته ومضمونه، فكان هذا الترديد بمثابة صدى يتردد فى جنبات قصائده، فيمنحها إيقاعا وتناغما، ويبرز الأبعاد الدلالية للألفاظ المترددة.

هـ- التناص:

يعدالتناص من أبرز سمات الخطاب الشعرى، ومن أدق خصائص بنيته التركيبية والدلالية، حيث تتداخل فيه أبنية نصوصية لها صلة مختزنة فى ذهن المبدع، فيصبح النص مجموعة من النصوص المتداخلة والممتدة فى الذاكرة، والتى تشد المتلقى لفك رموزها الدلالية، وعلاقاتها واحتمالاتها، فيبدأ فى فك شفرات النص، مانحًا إياها روحًا جديدةً تتجاوز روح المبدع إلى روحه هو، فقد أثاره هذا التداخل وحفزه للبدء فى البحث عن فك رموزها، واستكناه أسرارها(١).

ولا يمكن تحقيق الغرض من التناص ما لم تلتق رموز النص اللغوية والدلالية والثقافية مع دائرة وعى المتلقى، وحينها فقط تحدث الاستجابة الانفعالية لديه فيشعر بالقيمة الجمالية والنفسية للنص، ويصبح أكثر قربًا وفهمًا لنفسه، ومن هنا تمكن أهمية التناص فى إثراء النص وتوسيع أفقه "فحضور النص الغائب فى جسد النص الآنى، هو نوع من الحلول الصوفى الذى تتوحد فيه الذوات، وتتماهى التشكيلات المتغايرة وتتناسخ فيه المدلولات"(٢).

فالنصوص المتناصة تشير إلى ثقافات متنوعة، وأجناس أدبية مختلفة مخزونة فى ذاكرة الكاتب، استدعاها السياقان الأدبى والشعورى، فيقوم الشاعر بتحويلها إلى خيوط تتداخل فى نسيج نص فتثريه وتعمق فهمه، ولم تكن المتناصات مجرد ملصقات على جسد النص، يقحمها الشاعر دون مبرر بل ارتبطت عضويًا بالنص فأصبحت جزءا من بنيته.

---

(١) الشعر الفلسطينى المعاصر : عبدالخالق العف صـ٥٦ .
(٢) الشعر الفلسطينى المعاصر صـ٦٨ .

وقد حفل شعر ابن زيدون بأشكال التناص المختلفة بين الاستيحاء والاقتباس، والاستدعاء، وذلك بتضمين النص الحاضر أجزاء كاملة من النص الغائب، مما يؤكد البعد الزمانى المكانى لنصه، وإثراء طاقته التأثيرية، ومن أمثلة التناص الشعرى الذى يستوحى نصوص القرآن الكريم والموروث الدينى، قوله:

نار بغى سرى إلى جنة الأمـ ∴ ـن لظاها فأصبحت كالصريم
بآبى أنت إن تشأ تك بردا ∴ وسلاما كنار إبراهيم[1]

فالشاعر يتخذ من قصص القرآن وسيلة تأثيرية لعرض قضيته وبيان براءته، مشيرا فى البيت الأول إلى قصة أصحاب الجنة الأشحاء الواردة فى سورة (القلم) وقد حاولوا الاستئثار بثمار جنتهم كما بينه قوله تعالى: ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴾[2].

فقد اقتبس ما ورد فى النص القرآنى بصورة مقنعة، وضّحت الصورة المأساوية التى لحقت به من جراء سجنه ظلما، فأحالت جنة أمنه واطمئنانه إلى هشيم.

وفى البيت الثانى إشارة إلى قصة سيدنا إبراهيم ــ عليه السلام ــ الذى ألقى به قوم فى النار، ليحرقوه فأنقذه الله منها، وجعلها بردا وسلاما عليه، وهذا ما يوحى به قوله سبحانه وتعالى ــ : ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾[3].

---

(١) ديوان ابن زيدون صـ٢٨٣ .
(٢) سورة القلم آية: ١٩، ٢٠ .
(٣) سورة الأنبياء آية : ٦٩ .

هذا الاقتباس ــ من النص القرآنى ــ الجميل المختصر أغنى الشاعر عن أى مبررات أخرى كان مجبرا لأن يسوقها تبريرا لموقفه أمام الحاكم ، وقد ساعده هذا التناص مع النص القرآنى على توصيل الهدف إلى المتلقى بسرعة فائقة .

وفى تناص آخر يخاطب الشاعر سجانه نافيًا ما اتهم به، مبينًا أنه لا يعقل أن ينكث فيه المدح فيهجوه، فيكون مثل ناقضة الغزل، فيقول:

أأنكث فيك المدح من بعد قوة ∴ ولا أقتدى إلا بناقضة الغزل(١)

فقول ابن زيدون "ولا أقتدى إلا بناقضة الغزل" مستمد من قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا ﴾(٢) .

هذه الروح ــ التواقة إلى الحرية ــ فرضت نفسها على النص، والتى استقاها من موروثه الدينى من خلال النص القرآنى يوحى بمدى التودد لهذا الأمير، وإثبات إخلاصه له.

هذا االاقتباس من النص القرآنى لم يكن إقحاما له على السياق دون مبرر، بل ارتبط عضويا بالنص الشعرى فأصبح جزءا منه.

وهذا يدل على سيطرة القيم الإسلامية على ذهن الشاعر، والتى صبغت حياته كلها بصبغتها الخاصة، فأثرت فى مخزونه اللغوى، ووجد فيها ثراء فى الألفاظ والمعانى.

ولم يكن الاقتباس من القرآن هو المسيطر الوحيد على أنواع التناص الوارد ذكرها فى شعره فهو وإن كان يغلب عليه؛ إلا أننا نلمح أشكالا متعددة أخرى مثل: التناص التاريخى ،والتناص الأدبى.

فالتناص التاريخى: ساقه الشاعر ليوظف معارفه التاريخية فى أشعاره الاستعطافية تخفيفًا من جمود فكرته، وتقريبها من ذهن المتلقى ليتمكن من سبرغور دلالتها، وذلك حين يخاطب سجانه مقللاً من ذنبه قائلا:

ولو أننى واقعت عمدًا خطيئة ∴ لما كان بدعًا من سجاياك أن تملى
فلم استتر حرب الفجار ولم أطع ∴ مسيلمة إذ قال إنى من الرسل(٣)

---

(١) ديوان ابن زيدون صـ٢٧٠ .
(٢) سورة النحل آية: ٩٢ .
(٣) ديوان ابن زيدون صـ٢٦٩ .

فالشاعر فى البيت الثانى يشير فى معرض استعطافه لابن جهور والتقليل من ذنبه، لأنه لم يثر حرب الفجار، ولم يتبع مسيلمة الكذاب فى دعواه، هذا الاستدعاء لهذه الحادثة (حرب الفجار) واسم (مسيلمة الكذاب) لم يأت عبثًا ولم يقحم على السياق إقحامًا، بل ارتبط بالنص ارتباطًا وثيقًا، إذ من منّا لم يرتبط فى ذهنه حادثة حرب الفجار التى شهدها النبى ــ ﷺ ــ قبل البعثة، وكذلك حادثة مسيلمة الكذاب الذى ادعى النبوة فى عهد النبى ــ ﷺ ــ ٠

هذا الارتباط فى ذهن المتلقى هو ما دفع الشاعر لاستدعاء التاريخ، ليوضح للمتلقى أنه مهما كان له من ذنب فإنه موضع للعفو، لأنه لم يثر حرب الفجار، ولم يتبع مسيلمة الكذاب، وهذا التناص بطبيعة الحال يقرب الصورة، ويوضح المعنى الذى قصده الشاعر من خلال حشده للأحداث والأسماء التاريخية، التى لم يأت ذكرها عبثًا ،أو لصقا لصورة على جسم النص، فتبقى خارجة منعزلة عن بنيته٠

وأما التناص الأدبى: فقد ظهر جليا عند ابن زيدون من خلال تأثره بالمناهج الشعرية القديمة،لأنه أمر طبيعى أن يتأثر الشاعر بأسلافه ويستفيد منهم، ويبدأ من حيث انتهوا لأجل تعميق فكرته، وتطوير أشعاره، لأنها الأساس الذى ينطلق منه الشاعر فى سبيل اتضاح تجربته الإبداعية٠

فالموروث الشعر يتجلى صداه على الشاعر من خلال الأخذ من الشعر المشرقى عن طريق التضمين، ومن شواهد ذلك قوله:

يلبد الورد السبنتى ∴ وله بعد افتراس(١)

فإنه ينظر فيه إلى قول ابن الرومى:

سكنت سكونا كان رهنًا بعدوة ∴ عماس وكذاك الليث يلبد(٢)

وقوله فى مدح ابن جهور طالبًا منه أن يتمم مروءته ،التى توجب عليه ما بدأ به من الإحسان عليه:

ومتى تبدأ الصنيعة يولعك ∴ تمام الخصال بالتتميم(٣)

---

(١) ديوان ابن زيدون صـ٢٧٦ ٠
(٢) ديوان ابن الرومى تحقيق د/ حسين نصار ٢/ ٥٩٧، عماس: الحرب الشديدة ٠
(٣) ديوان ابن زيدون صـ٢٨٤ ٠

فإنه ينظر فيه إلى قول أبىتمام فى مدح محمد بن أبىربعى:

هـذا سـحاب أنـت سـقت غمامـه ∴ فعليـك بعـد الله فـيض غمامـه
إن ابتـداء العـرف مجـد باسـق ∴ والمجـد كـل المجـد فـى اسـتتمامه[١]

وقوله متحدثًا عن نكبات الدهر وتقلب أحواله، فمن شيمته أن يرفع أقواما ليذل آخرين:

وكـذا الـدهر إذا مـا ∴ عـز نـاس ذل نـاس[٢]

ينظر فيه إلى قول البحترى:

إذا مـا نسـبت الحادثـات وجـدتها ∴ بنـات زمـان ارصـدت لبنيـه

متـى أرت الـدنيا نباهـة خامـل ∴ فـلا ترتقـب إلا خمـول بنيـة[٣]

إلى جانب ذلك كانت الأمثال رافدا آخر من روافد ثقافة الشاعر، وقد لاحظ ابن رشيق أن الأمثال فى الشعر "تستحسن ونكت تستطرف مع القلة وفى الندرة، فأما إذا كثرت فهى دالة على الكلفة"[٤] وشاعرنا لم يكثر من الأمثال فى شعره الاستعطافى خوفا من التكلف ومن ذلك قوله:

أيهـذا الـوزير هـا أنـا أشـكو ∴ والعصـا بـدء قرعهـا للحلـيم[٥]

وهو مأخوذ من المثل القائل "إن العصا قرعت لذى الحلم" وهو مثل يضرب "لمن إذا نبه انتبه"[٦].

وبذلك يبقى التناص جزءا مهما فى بنية النص، فهو "بنية حاضرة مفتوحة على الماضى، ومتحركة نحو المستقبل، وهو بذرة خصبة منتجة تحدد إطار الحضور الذهنى، والتداعيات التى تخلقها الدلالات التحويلية بين رموز النص الغائب، وما تؤول إليه فى بنية الحاضر"[٧].

---

(١) ديوان أبىتمام ٣/ ١٥١ .
(٢) ديوان ابن زيدون صـ٢٧٤ .
(٣) ديوان البحترى صـ١٥٢ .
(٤) العمدة لابن رشيق ١/ ٢٨٥ .
(٥) ديوان ابن زيدون صـ٢٨١ .
(٦) مجمع الأمثال للميدانى ٦١/١ -٦٥ . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.
(٧) الشعر الفلسطينى المعاصر صـ٨١ .

ثانيا: الصورة الشعرية

تعد الصورة جوهر الشعر وأداته التى تشكل موقف الشاعر من الحياة، وهى "نقل تجربة حسية أو حالة عاطفية من الشاعر إلى المتلقى، فى شكل فنى تتخذه الألفاظ والعبارات بعد أن ينظمها الشاعر فى سياق بيانى خاص، ليعبر به عن جانب من جوانب التجربة الشعرية الكاملة فى القصيدة"(١).

ولذا كان تجسيد الرؤية الشعرية بالصورة يمنح المحسوسات حضورا فنيًا، تلقى الروح الشاعرة ظلالها على الجمادات فتبعث فيها الحياة والحركة والحيوية، والصورة مصدر الإيحاء لأنها تجسد المعنوى فى تراكيب حسية تضم عالمًا خياليًا من الرؤى الشاعرة "فالصور كلام مشحون شحنا قويا يتألف عادة من عناصر محسوسة: خطوط، ألوان، حركة، ظلال، تحمل فى تضاعيفها فكرة وعاطفة، أى أنها توحى بكثير من المعنى الظاهر، وأثر من انعكاس الواقع الخارجى، وتؤلف فى مجموعها كلاً منسجمًا"(٢).

وبذلك تصبح للصورة الشعرية بلاغة جديدة تخلق "وتعد أوسع نطاقا وأخصب من مجرد تشبيه أو استعارة وإن أفادت منهما، فليس بينها ــ إذن ــ والتشبيه أو الاستعارة جفوة، فقد يحصل التشبيه أو الاستعارة فى بعض الأحيان إلى درجة من الخصب والامتلاء والعمق، إلى جانب الأصالة والإبداع بحيث تمثل الصورة وتؤدى دورها"(٣).

فقدرة الشاعر على التجريد تمنح صوره حيوية وعمقًا، وتترفع بها عن الحسية المباشرة، وتكسبها فضاءات أرحب وأقدر على الإبحار بها من قبل المتلقى "فبقدر نشاط الخيال وإيجابيته فى التأليف بين عناصر الصورة واكتشاف العلاقات المستكنة بين تلك العناصر، ترتفع القيمة لها وتتضاعف إيحاءاتها"(٤).

---

(١) الصورة فى شعر الديوانيين محمد على هدية صـ٤٧ .
(٢) تمهيد فى النقد الحديث . روز غريب صـ١٩٣ .
(٣) الشعر العربى المعاصر د/ عزالدين إسماعيل صـ١٤٣ .
(٤) بناء القصيدة العربية الحديثة د/ على عشرى زايد صـ٧٩ .

وبالنظر فى شعر ابن زيدون الاستعطافى نلحظ أن التصوير أداة فاعلة فى شعره، وأن إعمال الخيال فيه يدل على مقدرة إبداعية عالية بعيدة عن التكلف.

وقد تنوعت الصورة فى شعرية بين التقليدية، والتشخيصية والمبتكرة.

فمن صورة التقليدية التى استند فيها على الوسائل التقليدية للصورة كالتشبيه والاستعارة والكناية، قوله فى مدح سجانه ابن جهور ووصفه بالتقوى، والفطنة والذكاء،وحسن التدبير، وآرائه التى تبدد غموض الأمور إذا أبهمت وتوضح مشكلاتها ، كما تتضح معانى الكتابة بوضع الشكل على الحروف:

نهوض بآعباء المروءة والتقى ∴ سحوب لأذيال السيادة والفضل
إذا أشكل الخطب الملم فإنه ∴ وآراءه كالخط يوضح بالشكل[1]

ثم يبالغ فى وصفه الاستعطافى مشبها همة ممدوحه العالية التى يكمن العزم والحزم تحت هدوئها، بكمون التأثير النافذ فى انكسار العيون الساحرة فيقول:

وذو تدرإ للعزم تحت أناته ∴ كمون الردى فى فترة الأعين البخل[2]

فالتشبيه بلا شك قد أعطى المتلقى فضاء تأمليًا واسعًا، ووفر للدلالة دقة وعمقا، وذلك بما يتيحه الخيال من جمع بين المتباعدات فى علاقات جديدة لم تكن موجودة قبل خلق علاقة التشابه.

ويأتى التشبيه البليغ فى شعره الاستعطافى ليضع المتلقى أمام خطاب بلاغى متميز، فتزداد عنده درجة اليقظة والانتباه لأمرين:

أولهما: حذف الأداة الذى يوحى باندماج الطرفين فى طرف واحد، "فالتطابق يسرى بين الطرفين إلى حد فناء أحدهما فى الآخر وامتزاجه"[3].

وثانيهما: حذف وجه الشبه الذى يؤدى إلى شحذ ذهن المتلقى لاختيار وجه الشبه لطرفى التشبيه، الذى يداعب خيال المتلقى ويفرض عليه نوعا من الانتباه والتأمل، فيقول:

والمحاذير سهام ∴ والمقادير قياس[4]

---

(١) ديوان ابن زيدون صـ٢٦٥ .
(٢) نفسه صـ٢٦٥ : التدرأ: العزة والمنعة.
(٣) القرآن والصورة البيانية د/ عبدالقادر حسين صـ٨٦ .
(٤) ديوان ابن زيدون صـ٢٧٤ .

فالمقادير هى التى تسبب النكبات كما ترسل الأقواس السهام٠

وقوله أيضا مصورا حالة الإقصاء والبعد عن الأهل والأصدقاء الذين تنكروا له مثل السامرى الذى يتقى لمسه ومساسه:

ما ترى فى معشر حالوا عن العهد وخاسوا
ورأونى سامريا ∴ يتقى منه المساس[1]

فحذف الوجه من سياق هذا التشبيه البليغ يدل على أن وجه الشبه ثابت ومؤكد ولا حاجة لذكره، وحذف الأداة ناجم عن شدة التقارب بين طرفى التشبيه فى أعماق الشاعر٠

وتحتل الاستعارة المرتبة الثانية فى الخطاب الاستعطافى، لما تحمله من سمات هامة على المستويين الدلالى والنفسى،وهو ما عبر عنه الجرجانى بقوله: "أنها تعطيك الكثير من المعانى باليسير من اللفظ حتى تخرج من الصدفة الواحدة عدة من الدرر، وتجنى من الغصن الواحد أنوعا من الثمر"[٢] وذلك يتفق مع أحد أهم الثوابت فى البلاغة العربية وهو أن البلاغة الإيجاز،فالبناء الاستعارى الذى يتسم بالإيجاز الشديد يمنح النص ثراء فى المعنى، وإيحاء دلاليا واسعا٠

وتتأكد قيمته فيما يحدثه من تغيير وخلخلة لمعطيات الواقع "فإنك لترى به الجماد ناطقا،والأعجم فصيحا،والأجسام الخرس مبينة"[٣]٠

وقد استعان ابن زيدون بالصورة الاستعارية فى التعبير عن محنته، وإسقاط الروح والحياة على الجمادات علها تحس وتشعر بمعاناته، وتخفف من آلامه، التى ذاقها فى دنيا الناس٠

ها هو ذا يلتمس الرحمة من الكائنات المحيطة به بعد أن تنمر له أصدقاؤهن وتكالب عليه حسادهن وأصم الأمير سمعه عنه وأصغى إلى أعدائه فيقول:

ألم يأن أن يبكى الغمام على مثلى؟ ∴ ويطلب ثأرى البرق منصلت النصل
وهلا أقامت أنجم الليل مأتما ∴ لتندب فى الآفاق ما ضاع من تتلى

---

(١) نفسه صـ٢٧٥ ٠
(٢) أسرار البلاغة عبدالقاهر الجرجانى صـ٣٦ ــ ٣٧ ت/محمد الفاضلى ٠
(٣) نفسه صـ٣٧ ٠

ولو أنصفتنى وهى أشكال همتى ∴ لألقت بأيدى الذل لما رأت ذلى
ولافترقت سبع الثريا وغاضها ∴ بمطلقها ما فرق الدهر من شملى[1]

فالشاعر قد أضفى على هذه الكائنات الروح والحياة ، فالغمام، والبرق، والنجم، والسبع الثريا، يندبن الشاعر ويحزن عليه، فقد تحولت هذه المسميات المادية إلى كائن حى فى الحركة والسلوك، فالطرف الأول (المشبه) فى هذه الاستعارات التشخيصية يمثل عزاء الشاعر وهو الغمام والبرق والنجم والسبع الثريا والطرف الثانى (المشبه به) وهو الإنسان المعزى ابن زيدون٠

فالخطاب الاستعطافى اتجه نحو الطبيعة الصامتة لتحقيق مشاركة وجدانية، ولم يتجه نحو الإنسان لتحقيق تلك المشاركة ٠

وتأتى الاستعارة التخييلية فى شعره لتعطى بعدا تأمليا خصبا يوزع ذهن المتلقى وأحاسيسه على مساحة تخييلية واسعة ،تكون أكثر تفاعلية من الحدث فيقول:

فتأمل كيف يغشى ∴ مقلة المجد النعاس[2]

يطلب من المتلقى أن ينظر كيف أغلق الدهر عين المجد بالنعاس؟ فمثله فى محنته مثل المجد٠

فقد أسبغ الحياة على المعنوى، وشخصه أمامنا فى تفجير واضح لعلائق المجاز، حيث منح الحياة للمجد وجعل له مقلة يغشاها النعاس٠

لم يقف التشكيل الصورى لشعر ابن زيدون الاستعطافى عند حد تبادل المدركات الحسية فقط من تشبيه وتشخيص وتخييل، بل كان هناك حضور ملحوظ للصورة الكنائية التى يتوسل بها الشاعر فى تصوير رغبته فى تحسين الصورة المراد نقلها للمتلقى أو تقبيحها، عن طريق الإيحاء بها، وليس بطريق النقل المباشر، فتكتسب بذلك دلالة أعمق وأقوى، ومنها قوله مخاطبا أباالحزم بن جهور:

---

(١) ديوان ابن زيدون صـ٢٦١، ٢٦٢ ٠
(٢) ديوان ابن زيدون صـ٢٧٧ ٠

فاشحذ بحسن الرأى عزمى يرع ∴ منى العدا ـ أليس شاكى السلاح[١]

فقد ظهرت الصورة الكنائية من خلال المدلول الإيحائى فى "أليس شاكى السلاح" فالصورة الحسية التى تتبادر إلى الذهن لأول وهلة هى صورة الأسد الشجاع، ولكن يظهر الانحراف الدلالى من الحسى إلى المعنوى بقليل من التفكر فى الصورة، فيظهر المراد منها وهو حسن الاستعداد للأعداء ، ولذلك فإن الأخذ بالدلالات الحقيقية والاصطلاحية لايفى بدوره فى الغاية، فتبقى هذه الدلالات مقصرة عن إعطاء التعبير حقه، لذلك فإن غاية ما، أو بالأحرى دلالة ثانية مستورة يرمى إليها الشاعر متى وصلنا إليها استقام المعنى"[٢].

كما رسم بالرمز الكنائى صورة أكثر عمقا وأقوى دلالة، حيث كنى عن حاله الحاضرة وما تحمله من آلام وأشجان بما يغنى السائل عن السؤال فى قوله:

من يسأل الناس عن حالى فشاهدها ∴ محض العيان الذى ينبى عن الخبر[٣]

وتكتمل معاناته، وتعظم محنته، فبعد أن كان فى رفعة ومنعة، أصبح فى دنو وانحطاط فيقول:

قد كنت أحسبنى والنجم فى قرن ∴ ففيم اصبحت منحطا إلى العفر[٤]

هذه الصورة الكنائية التى ساقها الشاعر لتصوير محنته برمز كنائى جميل، يدلل على مشاعره الأسوانة، ورغبته فى التعبير الكنائى عن تذلله وانكساره.

هذا عن الكناية عن صفة والتى ساقها الشاعر ليعبر ويكنى عن الحالة التى كان عليها من قبل، والحالة التى آل إليها من بعد.

إلا أنه بذكائه الإبداعى عندما أراد ان يمدح حاكمه ابن جهور تمهيدا لاستعطافه، وظف فى تعبيره الشعرى الكناية عن موصوف، فيقول:

الكاظم الغيظ ينساب الضمير له ∴ لولا الأناة سقاه من دم هدر[٥]

---

(١) ديوان ابن زيدون صـ٢٤٩ .
(٢) الصورة الشعرية صبحى البستانى صـ١٦٢ .
(٣) ديوان ابن زيدون صـ٢٥٣ .
(٤) ديوان ابن زيدون صـ٢٥٧ .
(٥) نفسه صـ٢٥٤ .

كناية عن ضميره اليقظ الذى يحميه من الظلم، ولولاه لأهدر الدماء وسلب الأرواح.

وفى قوله:

وزيـــر ســـلم كفـــاه يمـــن طـــائره ∴ شـــؤم الحـــروب ورأى محصـــد المـــرر[1]

كناية عن حكمته ورأيه الحازم الذى أغناه عن خوض الحروب، وفى قوله:

كم أشترى بكرى عينيه من سهر ∴ هـدوء عـين الهـدى فـى ذلـك السـهر
فى حضـرة غـاب صـرف الـدهر خشـيته ∴ عنهـا ونـام القطـا فيهـا ولم يثـر[2]

كناية عن الأمن والأمان الذى تنعم به الرعية ،لدرجة أن القطا أمن علـى حياته فلم يثر من مكامنه.

فالشاعر قد اعتمد فى تشكيل صوره الكنائية على معطيات البيئة المحيطـة به، واستمد منها عناصره فى صور موحية ذات دلالات عميقة، تدهش المتلقـى، وتثير فكره وخياله للتدقيق بما تحمله الصورة من معان خافيـة بلورهـا الرمـز الشفيف الذى حملته الكناية، وعبرت عنه فى تأويلاتها ودلالاتها العميقة.

أما صوره الطريفة المبتكرة فقد كان لذوقه وملكته الشعرية فيها أثر كبير، ومن ذلك قوله مادحا سجانه ابن جهور:

محاسـن مـا للحسـن فـى البـدر علـة ∴ سـوى أنهـا باتـت تمـل فيسـتملى
تغـص ثنـائى مثلمـا غـص جاهـدا ∴ سـوار الفتـاة الـرؤد بالمعصـم الخـدل[3]

فالشاعر يجعل محاسن الأمير تمد البدر بالحسن والبهاء، ولا عيـب فـى البدر إلا أنه يقتبس جماله من بهاء الأمير، وهذا انحـراف دلالـى يبعـث علـى التشوق ويثير الذهن، لأن المفروض هو العكس إلا أن الشـاعر يزيـد الصـورة كثافة ووضوحا وتشويقا، فيجعل محامد ومحاسن الأمير أكثر من ذلك لدرجـة أن ثناء الشاعر يضيق عن استيعابها، كما يضيق السوار بمعصم الغادة الحسناء.

وتأتى الصورة اللونية فى شعره متخذة من اللون وسيلة لانفساح فضـاء الصورة وثراء دلالاتها "لأن ألوان الأشياء وأشكالها هى المظاهر الحسـية التـى

---

(١) نفسه صـ٢٥٦ .
(٢) ديوان ابن زيدون صـ٢٥٦، ٢٥٧ .
(٣) نفسه صـ٢٦٦ .

تحدث توترا فى الأعصاب وحركة المشاعر، إنها مثيرات حسية يتفاوت تأثيرها فى الناس"[١].

فالشعر رسم بالكلمات، تتشكل صورته بواسطة التنظيم الفنى لمعطيات الحس فى نمط فنى له دلالات وإيحاءات متعددة، "وبذلك يتجاوز الشاعر الواقع المتمثل فى الطبيعة إلى نوع من التجريد فى رؤيته الشعرية الرمزية، وهو بذلك يكثف الواقع، وبذلك يؤدى إيحاء اللون دورا يفوق دلالته الوضعية، لأن اللون صار حيا فى وحدة النص"[٢].

وقد لجأ ابن زيدون لتوظيف اللون فى توضيح هيئة الموصوف فى شعره، فى بنى صورية تتوافق مع سياق النص، ومن ذلك قوله مادحا بنى جهور:

هم الملوك ملوك الأرض دونهم ∴ كمثل بيض الليالى دونها الدرع[٣]

فبنو جهور فى مخيلة الشاعر يمتازون عن ملوك الأرض كما تمتاز الليالى المقمرة من أولها إلى آخرها على ليالى السرار، التى لا يظهر القمر إلا فى أخرياتها.

ولا تخفى دلالة اللون الأبيض على المتلقى خاصة وأن المقصود ليس بياض الليالى، بل يمنح اللون الأبيض الصورة دلالات متعددة كالإشراق، والنضارة، والطلة البهية، هذه المعانى والصفات التى أوحاها لنا اللون الأبيض، هى سبب إشراق الصورة، وقوتها، وتعلقها بذهن المتلقى.

ويوظف الشاعر اللون الأسود فى خدمة المعانى، وتكثيف الإيحاءات، عند تصويره للكارثة التى وقعت عليه، بأنها ليست الوحيدة فى حياته، فلديه من أمثالها الكثير، فيقول:

أيها المؤذنى بظلم الليالى ∴ ليس يومى بواحد من ظلوم[٤]

فالألفاظ "ظلم ــ الليالى ــ ظلوم" تراكيب تعبيرية توحى بسوداوية الحياة التى يعيشها ابن زيدون، فالظلم ظلمات، والمحن ظلمة تؤدى بصاحبها إلى الهلاك

---

(١) الشعر العربى المعاصر . عزالدين إسماعيل صـ١١١ .
(٢) الصورة الشعرية والرمز اللونى . يوسف نوفل صـ٢٧ .
(٣) ديوان ابن زيدون صـ٢٩٨ . الدرع: سواد الليل حتى يطلع القمر فى أخرياته. القاموس مادة (درع) صـ٩٢٣ .
(٤) ديوان ابن زيدون صـ٢٨٠ .

النفسى، هذه التراكيب الإيحائية ساهمت فى تشكيل صورة المعاناة التى أراد الشاعر رسمها من خلال تعدد ظلال اللون الأسود، استطاعت أن تمنح الصورة دلالات أكثر قتامة، وذلك لما يوحيه اللون الأسود من دلالات وظلال كئيبة.

أما اللون الأحمر فيأتى متوائما وفقا للحالة الشعورية التى صاحبتها لحظة الخلق الفنى لدى الشاعر، عندما صور قلوب حاسديه وأعدائه التى تتلظى حقدا وحسدا كما تذوب الشمعة فى النار، فيقول:

كم غرة لى تلقتها قلوبهم ∴ كما تلقى شهاب الموقد الشمع(١)

فقد أدى التركيب اللونى "شهاب الموقد" وظيفة حسية ونفسية فى توضيح الصورة وربطها بنفسية الشاعر، حيث تناول ابن زيدون رسم صورة منفرة لحال هؤلاء الحساد الذين تذوب قلوبهم حنقا عليه كما يذوب الشمع فى الموقد ،وهذا تصوير موفق وظف فيه الشاعر ظلال اللون الأحمر ودلالته لتوضيح هيئة الموصوف .

فالمشكلات الحسية التى تضافرت بها عدة مدركات بالإضافة إلى دلالات الألوان ،استطاعت رسم صورة متكاملة الدلالة لشعر ابن زيدون الاستعطافى، حيث الظلال التى تحيط بتداخلات الألوان وانحرافاتها تقف على المعنى ،والتحليق فى آفاق الإيحاء.

وبهذا فالصورة الشعرية فى شعر ابن زيدون الاستعطافى كشفت عن معاناة كامنة عميقة، استطاعت ن تصل إلى تلك المعاناة الغائرة لتكشف عنها بعدة صور تمثلت فى الصور التقليدية من تشبيه واستعارة وكناية، وتشخيص، وصور مبتكرة، وصور لونية، حاكت واقعه المتردى الماثل فى محنة سجنه، فى نسيج صورى متكامل، انصهرت خيوطه فى بوتقة التشكيل الجمالى، فامتازت بجودة الأداء، ودقة التصوير.

---

(١) نفسه صـ٣٠٣ .

ثالثا: الموسيقى

يعد الإيقاع من أهم دعائم التشكيل الجمالى للقصيدة، يؤدى الوزن فيها دورًا هامًا فى خلق النغم المؤثر، والإيقاع الناتج عن خاصية التناسب الصوتى بين أحرف القصيدة، مما يؤثر فى نفسية المتلقى ويسيطر على مشاعره وأحاسيسه، فالشعر يتكون من "كلمات تنتظم فيما بينها انتظامًا مخصوصًا، تبعًا لتعاقب الحركة والسكون، مما يصنع للشعر وزنه المتميز وإيقاعه الخاص، هذا الانتظام يعتمد على كيفية فريدة فى تناسب أصوات الكلمات، وتوافق أحرفها توافقًا زمانيًا يشكل صورة الوزن العروضى الذى يتقدم به الشعر، ويعد من جملة جوهره"(١).

ولذا كان الشعر "كلامًا موسيقيًا تنفعل لموسيقاه النفوس، وتتأثر بها القلوب" (٢) .

وبذلك تعد الصورة الموسيقية لبنية القصيدة من أهم جوانب التجربة الشعرية "إذ تنساب أنغامها فى وجدان الشاعر ألحانا ذات دلالة، وتصقل موهبته النغمية وتوقظ لديه التلوين الإيقاعى الذى يستخدمه، وتخلق فيه الإحساس بجرس الكلمة ونبر اللفظ ، وتطبع أذنه بطابع الانتقاء والاختيار"(٣).

ولعل السبب فى شيوع الشعر وانتشاره على ألسنة الناس، هو تلك اللذة السمعية التى توفرها موسيقاه فيطرب المتلقى للأنغام والإيقاعات قبل إدراك المعانى والصور.

ولذا كان الكمال الإيقاعى للشعر لا يتحقق إلا بتناغم الوزن الخارجى مع الوزن الداخلى.

أولا: الموسيقى الخارجية:

أ ـ الوزن :

اهتم الشعراء بالوزن اهتماما كبيرا، وأولوه عناية فائقة تساوى مكانته، فهو النهر النغمى الذى يحد بضفافه تجربة الشاعر ويعطيها ذاتها الفنية(٤)، وهو

---

(١) مفهوم الشعر دراسة فى التراث النقدى د/ جابر عصفور صـ٢٣٩ .
(٢) موسيقى الشعر د/ إبراهيم أنيس صـ٢٢ .
(٣) عناصر الإبداع الفنى فى شعرالأعشى /عباس عجلان صـ٦٤ .
(٤) انظر التجديد الموسيقى فى الشعر /د. رجاء عيد صـ٩ .

إطار تنتظم به الألفاظ والتراكيب من خلال إيقاع متميز يمكن التعرف عليه مجردًا من خلال رصد الحركات والسكنات المطلقة، ثم استخدام التفاعيل للتمييز بين وزن وآخر(١).

ولأن الوزن جزء من مكونات البناء الفنى لابد أن يتحد مع العناصر الفنية الأخرى ويتفاعل معها، وكان من رأى نقادنا القدماء ضرورة ربط الوزن الشعرى والأغراض الشعرية(٢)، بينما يرى آخرون من النقاد المحدثين أن محاولة ربط موضوع ما بوزن معين جهد ضائع، فالتفعيلات المجردة لا تمتلك خصائص معنوية أو نفسية تضاف إلى خصائصها الإيقاعية إلا فى إطار بنية القصيدة، حيث تندمج فى وحدة فنية متكاملة، وليس فى التراث الشعرى القديم ما يوحى بتغير أوزان الموضوع، أو الربط بين الموضوع ووزنه، فقد كانوا يمدحون ويفاخرون ويرثون فى بحور الشعر التى عرفوها(٣).

فالشاعر حينما يقول شعرًا لا يحدد لنفسه بحرًا، وإنما هو يتحرك مع أفاعيل نفسه، فيخرج الشعر فى الوزن الذى يصدف له من الأوزان(٤).

ومن خلال تتبع ابن زيدون فى شعره الاستعطافى للحاكم، يمكن القول أنه لم يخصص بحرا واحدا لغرض ما، فقد فخر، ومدح، واستعطف على نفس الوزن الشعرى.

ورغم أنه لم يخصص وزنا معينا لغرض ما، إلا أن الأوزان ارتبطت بالحالة النفسية للشاعر، فهو فى "حالة اليأس والجزع يتخير عادة وزنا طويلا كثير المقاطع يصب فيه من أشجانه ما ينفس عن حزنه وجزعه، فإذا قيل الشعر وقت المصيبة والهلع تأثر بالانفعال وتطلب بحرًا قصيرًا يتلاءم وسرعة التنفس وازدياد النبضات القلبية"(٥).

---

(١)موسيقى الشعر العربى / حسنى عبدالجليل يوسف صـ١٥.
(٢)منهاج البلغاء وسراج الأدباء/حازم القرطاجنى صـ٢٦٦ .
(٣) موسيقى الشعر د/ إبراهيم أنيس صـ١٩٥ .
(٤) التفسير النفسى للأدب د/ عزالدين إسماعيل صـ٥٢ .
(٥) موسيقى الشعر د/ إبراهيم أنيس صـ١٩٦ .

وباستقراء شعره الاستعطافى، تبين أنه نظمه على ثمانية بحور من بحور الشعر العربى، وهى كالتالى: "الطويل، الكامل، البسيط، الخفيف، الوافر، المتقارب، السريع، مجزوء الرمل" ٠

وكان لبحر الطويل حضور واضح فى شعره، فهو من أكثر البحور استعمالاً فى شعره الاستعطافى، وهو بذلك يسير فى ركاب الشعراء العرب، "فما يقرب من ثلث الشعر العربى القديم من هذا الوزن"(١) ٠

وسمى بهذا الاسم لأنه أطول بحور الشعر العربى، حيث يبلغ عدد حروفه ثمانية وأربعين حرفًا، كما يقع فى أوائل أبياته الأوتاد ثم يليها الأسباب ، والوتد أطول من السبب ، وتفعيلات بحر الطويل هى:

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن ∴ فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن

ولهذا وجد ابن زيدون فى هذا البحر وتفعيلاته متنفسًا لمشاعره، فهذه السعة اللفظية من حركات وسكنات إلى جانب السعة الزمانية للتفعيلات، أتاحت له التنفس الهادئ بسبب التوافق بين تفعيلاته وبين الاتزان النفسى الذى يشعر به الشاعر، فبعد أن هدأت نفسه يتودد إلى أميره من سجنه مستعطفًا إياه، ومترقبًا لما يفعله به أميره من عقاب أو صفح جميل ، كما يقف المحب المغرم مترقبًا من حبيبته الصدّ أو الإقبال، فإذا تحققت آماله فهذا جدير بمآثر الأمير القائمة على العدل، وإلا فعليه الرحيل وإن كان فيه حلاوة الأمان، والاستقرار بعد الذل فيقول:

ألا إن ظنى بين فعليك واقف ∴ وقوف الهوى بين القطيعة والوصل
فإن تمن لى منك الأمانى فشيمة ∴ لذاك الفعال القصد والخلق الرسل
وإلا جنيت الأنس من وحشة النوى ∴ وهول السرى بين المطية والرحل(٢)

فقد جاء النظم هنا على بحر الطويل لأن موسيقى هذا البحر هادئة خفيفة، تتلاءم وتنسجم مع مواقف التحسر والتأسف والتشكى والتألم التى يعايشها ابن زيدون من مرارة الاعتقال، وهذه مواقف تحتاج إلى تأمل وعمق لا يصلح لها غير بحر الطويل، وبذلك تحتويه موسيقاه من طول وكثرة فى المقاطع وخفاء فى

---

(١) نفسه صـ٦٩ ٠
(٢) ديوان ابن زيدون صـ٢٧٢ ٠

الجرس، وكلها صفات تتيح للمستعطف تفهم الأشعار الاستعطافية دون أن ينشغل بدندنة النغم وجلبة التفاعيل.

وعندما فرّ من سجنه وتفرق عنه الأصدقاء وتكالب عليه الحساد، لجأ إلى أستاذه أبىبكر بن مسلم النحوى متخذا منه معينا له فى هذه المحنة، ومقيلاً له من هذه العثرة، طالبًا منه أن يتوسط بالشفاعة لدى أميره ابن جهور، ووجد فى بحر الطويل ركوبًا لهذه المشاعر الحارة، ومتنفسًا هادئًا لها، وذلك بعد أن استكانت نفسه لليأس والهم المستمر، فيقول:

هرمت وما للشيب وخط بمفرقى ∴ ولكن لشيب الهم فى كبدى وخط
وطاول سوء الحال نفسى فأذكرت ∴ حنى الروضة الغناء طاولها القحط
مئين من الأيام خمس قطعتها ∴ أسيرا وإن لم يبد شد ولا قمط
أتت كما ميص الإناء من الأذى ∴ وأذهب ما بالثوب من درن مسط[1]

ويأتى بحر الكامل فى المرتبة الثانية من شعر ابن زيدون الاستعطافى لتكامل حركاته، والتى بلغت ثلاثين حركة[2]، جعلت منه حيزا مكانيًا واسعًا من خلال التفعيلات الست الممتدة، والتى تتكون من فاصلة كبرى ووتد مجموع، وحيزًا زمانيًا فى لفظ هذه التفعيلات الستة وهى (متفاعلن متفاعلن متفاعلن) فى كل شطر، مما يمكن الشاعر من التعبير بتأنٍ وهدوء عما يجول فى نفسه من معان، ومن ذلك قوله مفتخرا بتجلده أمام الحوادث التى لو نزلت بجبل أشمّ لتهدم وتحول إلى كثيب، ولئن أصابته بالوهن فلا عجب، فكثيرا ما يترك الجفن آثاره فى صفحة السيف البتار:

مالى وللأيام لج مع الصبا ∴ عدوانها فكا العذار مشيبا
محقت هلال السن قبل تمامه ∴ وذوى بها غصن الشباب رطيبا
لألمّ بى ما لو ألمّ بشاهق ∴ لانهال جانبه فصار كثيبا
فلئن تسمنى الحادثات فقد أرى ∴ للجفن فى العضب الصقيل ندوبا[3]

---

(١) ديوان ابن زيدون صـ٢٨٩، الوخط: انتشار المشيب، المنى: الموت أو القدرن القمط: ربط يدى الأسير ورجليه، ميض: غسل برفق، مسط: بل الثوب وعصره.
(٢) انظر الوافى فى العروض والقوافى للتبريزى صـ٧٨ .
(٣) ديوان ابن زيدون صـ٣٢٦ .

فبحرالكامل أضفى على أبياته رنة موسيقية حزينة، زينتها الألفاظ الفخمة الرشيقة التى جاءت مناسبة للحدث، مما عمق صورته القوية أمام الحوادث المتلاحقة فى ذهن المتلقى، ليشاركه مشاعره وأحاسيسه الحارة.

وأما بحر البسيط فيأتى فى المرتبة الثالثة من البحور الطويلة التى وظفها ابن زيدون فى شعره الاستعطافى "لانبساط الحركات فى عروضه وضربه"[١] مما جعلت منه مكانًا رحبًا لاستيعاب مشاعره، وملاءمته لحالته النفسية حين أراد التعبير عن معاناته فى سجنه، وبحثه عن الوسائل التى تجعله يتذوق رضا أميره السائغ بعد أن تكدر صفو العتاب بينهما، فيقول:

هل من سبيل ـ فماء العتب لى أسن ـ ∴ إلى العذوبة من عتباك والخصر؟
نذرت الشكر ـ لا أنسى الوفاء به ـ ∴ إن أسفرت لى عنها أوجه البشر[٢]

وعندما تتملكه الشكوى لأميره مما وصل إليه حاله لا يجد غير بحر الوافر بنغماته "مفاعلتن مفاعلتن فعول" فى كل شطر، ليفرغ فيه مشاعره المتدفقة، نظرا "لتلاحق أجزائه، وسرعة نغماته، فهو وزن خطابى يشتد إذا شددته، ويرق إذا رققته"[٣] فيقول:

نصيب من ولايتكم كثير ∴ وحظ من عنايتكم قليل
أتحيا أنفس الآمال فيكم ∴ ولى ـ أثناءها ـ أمل قتيل
وأعجب حادث نظرى لديكم ∴ إلى غلل النجاح وبى غليل[٤]

فمن خلال بحر الوافر أضفى الشاعر على أبياته النبرة الخطابية التى تهز السامع، وتحرك حواسه، وتزيد انتباهه لما يردده الشاعر عما يلاقيه من الإهمال وعدم العناية، على الرغم مما يحمله من أعباء مرهقة، ولا يجد فى ذلك مقابلا يشفى غليله.

وهناك بحور لم نجد لها حضورا لافتا فى شعره الاستعطافى ولم ينظم على وزنها إلا فى قصيدة واحدة، ومنها (بحر السريع) بنغماته (مستفعلن مستفعلن فاعلن) فى كل شطر ، والذى نظم عليه قصيدته "ضراعة وتوسلات" التى يستعطف فيها أبا الحزم بن جهور طلبا للشفاعة والصفح والغفران فيقول:

إيه أبا الحزم اهتبل غرة ∴ ألسنة الشكر عليها فصاح

---

(١) الوافى فى العروض والقوافى صـ٥٤ .
(٢) ديوان ابن زيدون صـ٢٥٩. أسن: آجن راكد.
(٣) شرح تحفة الخليل فى العروض والقوافى ــ عبدالحميد الراضى صـ١٥٣ .
(٤) ديوان ابن زيدون صـ٣٣٢ .

لا صـــار لى حـــظ إلى غايـــة ∴ إن لم أكـــن منـــك مـــريش الجنـــاح
عتبـــاك بعـــد العتـــب أمنيـــة ∴ مـــالى علـــى الـــدهر ســـواها اقـــتراح[1]

ففى هذه الأبيات كان التنفس فيها لاهثًا سريعًا ممتزجًا بالضراعة والتوسل والألم، تناسب مع ما يحويه هذا البحر من حركات وسكنات، فهو يحوى اثنتين وعشرين حركة وست عشرة سكنة ــ ولأن الحركات به أكثر من السكنات، فقد تلائمت مع توالى تدافع المشاعر المتدفقة لدى الشاعر.

هذا بالنسبة للبحور التامة ومدى حضورها فى شعر ابن زيدون الاستعطافى، أما البحور المجزوء فلم نجد عنده إلا بحرا واحدا، وهو "مجزوء الرمل" الذى نسج عليه قصيدته الرشيقة التى ذات النفثة الحارة ،التى بعث بها من سجنه إلى صديقه ابن برد الأصغر يلتمس منه العون والتشفع فيه لدى الأمير، فيقول:

يـــا أبـــا حفـــص ومـــا ســـا ∴ واك فـــــى فهـــــم إيـــــاس
مـــن ســـنا رأيـــك لى فـــى ∴ غســـــق الخطـــــب اقتبـــــاس
ووادى لـــــك نـــــص ∴ لم يخالفـــــه القيـــــاس
أنـــا حـــيران وللأمـــ ∴ ـــــر وضـــــوح والتبـــــاس
مـــا تـــرى فـــى معشـــر حـــا ∴ لـــوا عـــن العهـــد وخاســـوا[2]

وبالنظر فى هذه الأبيات نجد أن "مجزوء الرمل" بنغماته "فاعلاتن فاعلاتن" فى كل شطر استوعبت عواطف الشاعر المضطربة، وذاته المتحيرة، التى تواءمت مع حركات وسكنات هذا البحر "الذى يوصف باضطراب بنائه"[3].

وهكذا نجد أن ابن زيدون فى شعره الاستعطافى استطاع ملائمة عواطفه وانفعالاته مع البحور التى صب فيها هذه الانفعالات والمشاعر، بغض النظر عن مضمون القصائد التى جاء التعبير عنها مختلفا كل مرة، وذلك حسب حالة الشاعر النفسية والظروف المحيطة به، فتراوح ذلك التعبير بين النفس الهادئ، وبين التنفس السريع اللاهث.

ب ـ القافية:

القافية شريكة الوزن فى الاختصاص بالشعر، فالشعر لا يسمى شعرا إلا إذا كان له وزن وقافية[4]، وهى "عدة أصوات تتكرر فى أواخر الأشطر أو الأبيات من القصيدة، وتكررها هذا يكون جزءًا هامًا من الموسيقى الشعرية، فهى بمثابة الفواصل الموسيقية يتوقع السامع ترددها، ويستمتع بمثل هذا التردد الذى يطرق

---

(١) ديوان ابن زيدون صـ٢٤٩ .إياس:هو إياس بن معاوية تولى القضاء فى البصرة
(٢) ديوان ابن زيدون صـ٢٧٥ .إياس:هو إياس بن معاوية تولى القضاء فى البصرة فى زمن عمر بن عبدالعزيز، وكان مضرب المثل فى الذكاء. البيان والتبيين للجاحظ ص٧ ت عبدالسلام هارون.
(٣) موسيقى الشعر د/ صابر عبدالدايم صـ٩٠ .
(٤) العمدة لابن رشيق ١/ ١٥١ .

الآذان فى فترات زمنية منتظمة، وبعد عدد معين من مقاطع ذات نظام خاص يسمى بالوزن"[١].

وسميت القافية بهذا الاسم كونها آخر البيت الشعرى من قولك: قفوت فلانا إذا تتبعته[٢]، وقد أولاها العلماء والنقاد أهمية كبرى، فتحدثوا عن محاسنها وعيوبها، وجيدها ورديئها ، ولذلك فإن القافية "يجب أن تكون الموعود به المنتظر يتشوقها المعنى بحقه، واللفظ بسقطه ، وإلا كانت قلقة فى مقرها مجتلبة لمستغن عنها"[٣].

وبالنظر فى شعر ابن زيدون الاستعطافى وجد أنه أحسن اختيار حروف قوافيه، والتى تنوعت بين المقيدة والمطلقة.

القافية المقيدة:

وهى القافية "التى يكون رويها ساكنا"[٤] وهذا من القوافى قليلة الشيوع فى الشعر العربى[٥]، وفى شعر ابن زيدون الاستعطافى جاءت هذه القافية قليلة: إذا ما قارناها بقوافيه المطلقة ، ولعل الشاعر قد أحس بالتقييد لقريحته من جراء النظم عليها ،فلجأ إلى القافية المطلقة.

ومن أنواع القوافى المقيدة فى شعره الاستعطافى:

١ ـ القافية المقيدة المجردة: وهى القافية المجردة من الردف[٦]، والتأسيس[٧]، ومنها قوله مادحا آل جهور بالرفعة، وحسن المنزلة:

يا بنى جهور الدنيا بكم ∴ حليت أيامها بعد العطل
إنما دولتكم واسطة ∴ أهدت الحسن إلى عقد الدول
نحن من نعمائكم فى زهرة ∴ جددت عهد الربيع المقتبل[٨]

---

(١) موسيقى الشعر د/ إبراهيم أنيس صـ٢٧٣ .
(٢) كتاب القوافى للتنوخى صـ٥٩ ت/ عونى عبدالرءوف.
(٣) مقدمة ديوان الحماسة صـ٩٥ شرح المرزوقى.
(٤) علم القافية د/صفاء خلوصى صـ٨ .
(٥) موسيقى الشعر د/إبراهيم أنيس صـ٢٦٠ .
(٦) الردف: الحرف الذى يأتى بعده الروى بغير حاجز بينهما . انظر كتاب القوافى للتنوخى صـ١١٤ .
(٧) التأسيس: ألف يفصل بينها وبين الروى حرف. انظر كتاب القوافى صـ١٠٦ .
(٨) ديوان ابن زيدون صـ٣٤١ .

جاء الروى حرف اللام وهو من الحروف المتوسطة بين الشدة والرخاوة، ويأتى مفخما بحسب ما قبله، وهو من الحروف المجهورة ولكن هذا الجهر لم يظهر عليه بسبب تقييد القافية، والذى بدوره منع تسرب التنفس إلى خارج النفس، فردها قوية عليها مما أحدث تفاعلا ذاتيا بين نفس الشاعر التى تدعو الآخرين (آل جهور) بالنظر إليه بعين الرضا، فهو شاعرهم الذى طالما غرد بشعره مثنيا عليهم، ثم ترد محاسبة نفسها بأنها من نعمائهم فى حياة مزدهرة تذكرها بعهود الربيع الجميلة المقبلة.

٢ ـ **القافية المقيدة المردفة**: وهى القافية "التى سبق رويها الساكن حرف مد"[١] ومنها قوله متوسلا لابن جهور طلبا للشفاعة والعفو:

واشفع فللشافع نعمى بما ∴ سناه من عقد وثيق النواح
وقاك ما تخشى من الدهر من ∴ تعبت فى تأمينه واستراح[٢]

جاء الروى حرف الحاء، وهو من الحروف المهموسة الرخوة المرققة، ولا يحدث أى ذبذبات صوتية للأوتار[٣]، وهذا ما يتناغم مع نفسية الشاعر المحطمة التى طالما استعطفت الحاكم الذى أصم عنها أذنيه.

وقام حرف الردف (الألف) بدور هام فى التمهيد لسكون القافية وتوقف الأنفاس.

وذلك لأنه فى الأصل حرف مد ساكن مهد لحرف الروى، ليأخذ وضع السكون، وليكتم الأنفاس، ليترتب عليها بعد ذلك المعنى المراد من التوسل والاستعطاف.

أما القافية المطلقة: فهى القافية "التى يكون رويها متحركا[٤]" وشغلت هذه القافية مساحة واسعة من شعر ابن زيدون الاستعطافى، لما فيها من حرية للشاعر فى اختياره للروى المناسب لغرضه، وجاءت هذه القافية بأنواعها عند الشاعر، فالقافية المطلقة المجردة من الردف والتأسيس، قوله مستعطفًا ابن جهور وهو فى غيابة السجن:

---

(١) الإطار الموسيقى للشعر وملامحه وقضاياه : عبدالعزيز نبوى صـ٢٦٢ .
(٢) ديوان ابن زيدون صـ٢٤٩ ــ ٢٥٠ .
(٣) المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث الأدبى د/رمضان عبدالتواب صـ٥٥ .
(٤) علم القافية د/صفاء خلوصى صـ٨ .

لـــك الشـــفاعة لا تثنـــى أعنتهـــا ∴ دون القبـــول بمقبـــول مـــن العـــذرِ
فاشـفع أكـن مثـل ممطـور ببلدتـه ∴ جـــذلان بـــالوطن المـــألوف والـــوطر[1]

جاء الروى حرف الراء وهو من القوافى الذلل "التى كثر على الألسن فـــى القديم والحديث"[2] وهو حرف مجهور يتوسط بين الشدة والرخاوة، فلا يسمع له انفجار الحروف الشديدة، ولا خفيف الأصوات الرخوة[3].

وبهذا فقد منح أبياته استطالة إيقاعيـــة خاصـــة مـــن خـــلال خصائصـــه التكرارية، لتترك أثرا أعمق وأطول فى نفس المتلقى، خاصة وأن الشاعر يعـــانى من الذل والهوان فى غياهب السجن، فجاء روى الراء ليؤكـــد ويثبـــت الصـــورة المراد نقلها من هذه الظلمات.

وتأتى أيضا فى شعره الاستعطافى القافية المطلقة المردوفة "التى تـــأتى بعد حرف لين أو مد"[4] ومن ذلك قوله: معلنا الشكوى والضجر من تركـــه فـــى سجنه دون أن يلوح فى الأفق ما يوحى بإخراجه منه؛ إلى أن أصـــابه الضـــعف والوهن بعد القوة:

أيهـــذا الـــوزير هـــا أنـــا أشـــكو ∴ والعصـــا بـــدء قرعهـــا للحلـــيم
مـا عسـى أن يـألف السـابق المـر ∴ بـــط فـــى العتـــق منـــه والتطهـــيم
وبقـاء الحسـام فـى الجفـن يثنـى ∴ منـــه بعـــد المضـــاء والتصـــميم[5]

فحرف الميم الجهورى المكسور الذى يحدث ذبذبة فى الأوتار الصوتية عند خروجه، استوعب عاطفة الشاعر الملتاعة بعذابات السجن وآلامه، وأكد رغبتـــه المسيطرة عليه فى الانفكاك من هذا السجن، مما أعطى البيت إيقاعـــا موســـيقيا عنيفا.

إلى جانب ذلك لزم أن يتبع هذه الميم المكسورة حرف (الوصل) من جنس حركة الروى، مما ساعد الشاعر فى التخلص تباعا من نفثات صدره المتبقية بعد

---

(١) ديوان ابن زيدون صـــ٢٦٠ ــ ٢٦١ .
(٢) لزوم ما لا يلزم أبوالعلاء المعرى صـــ٣٧ .
(٣) الأصوات اللغوية د/ إبراهيم أنيس صـــ٦٧ .
(٤) علم القافية د/ صفاء خلوصى صـــ٣٤ .
(٥) ديوان ابن زيدون صـــ٢٨٢ .

الفراغ من كل بيت، مما يجعل "النهاية قمة التركيز الإيقاعى للبيت، فالأصوات كالأجسام المتحركة"(١).

إذا كانت هذه براعة الشاعر فى الموسيقى الخارجية ممثلة فى الوزن والقافية، فهى ليست بأقل من مهارته أيضا فى الموسيقى الداخلية.

ثانيا: الموسيقى الداخلية:

تؤلف الموسيقى الداخلية وحدة النص الموسيقية والصوتية بمشاركة الموسيقى الخارجية من خلال النغم الإيقاعى الذى تحدثه الألفاظ، وهى موسيقى "خفية تتبع من اختيار الشاعر لكلماته، وما بينهما من تلاؤم فى الحروف والحركات، وكأن للشاعر أذنا داخلية وراء أذنه الظاهرة تسمع كل شكلة وكل حرف وحركة بوضوح تام"(٢).

فالإيقاع الداخلى للألفاظ، والجو الموسيقى الذى تحدثه عند النطق بها "يعتبر من أهم المنبهات المثيرة للانفعالات الخاصة المناسبة، كما أن له إيحاء خاصا لدى مخيلة المتلقى والمتكلم على السواء"(٣).

فمواطن الجمال فى الشعر تكمن فى "التوافق الرائع بين التكوينات الصوتية للجملة ، وإيقاع الكلمات ، وحروف الوقفات، وامتداد الجمل وعلاقاتها، وتكرار أو تغاير الكلمات والأصوات فيها، وبين الحالة الشعورية التى يعبر عنها الكاتب"(٤) .

ولابن زيدون أذن موسيقية جعلته ينوع موسيقاه الداخلية فى: التجانس الصوتى، والجناس، والمماثلة، والتصريع، والطباق، والتقسيم الموسيقى، ورد العجز على الصدر، والتدوير .

التجانس الصوتى:

وهو أن يأخذ الحرف وضعه الإيقاعى من خلال المنظومة الصوتية لباقى الحروف فى السياق اللفظى بحيث يصبح بينها انسجام داخلى يتواءم مع المعنى،

---

(١) موسيقى الشعر بين الثبات والتطور د/ صابر عبدالدايم صـ١٦٩
(٢) فى النقد الأدبى د/ شوقى ضيف صـ٩٧ .
(٣) الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية د/ مجيد عبدالحميد صـ٣٨
(٤) اللغة الفنية د/ محمد حسن عبدالله صـ١٢ .

ويتماشى مع الحالة النفسية للشاعر، حتى تخرج القصيدة الشعرية كلاً متعاضـدًا، وإبداعًا فنيًا معبرًا، ويمكن ملاحظة الظواهر الحرفية من خلال التكـرار الصـوتى لها، فقد وظف ابن زيدون تكرار أصوات معينة فى شعره الاسـتعطافى بطريقـة لائقة ومقبولة، تحدث الإمتاع فى نفس المتلقى وأذنه ، وتجذب انتباهه، ومن ذلك حسن توظيفه لحرف "السين" فى قوله:

إن قسـا الـدهر فللمـا ∴ ء مـن الصـخر انبجـاس
ولـئن أمسـيت محبـو ∴ سـا فللغيـث احتبـاس
يلبـد الـورد السـبنتى ∴ ولـه بعـد افـتراس[1]

تردد حرف السين فى جنبات القصيدة جاء معبـرا عـن الحالـة النفسـية للشاعر، فالسين من الحروف الرخوة المهموسة، ولكنها أيضا من حروف الصفير التى تسترعى الانتباه بجرسها الموسيقى العذب، وبخاصة إذا كان رويًا للقصيدة، وتكرر عدة مرات فى قوله: "انبجاس، احتباس، افتراس " هذا الحضـور لحـرف السين والذى تكرر فى كلمات القصيدة، أعطى جرسًا قويًا وفخمًا، يوائم الظـروف النفسية الرهيبة التى يعانيها الشاعر بعد أن تنكر له كل من حوله، ويحرص على نقل أدق تفاصيلها إلى المتلقى.

وعندما أراد الشاعر أن يصور حالة الغضب الشديدة التى يشعر بها تجـاه الحاكم ابن جهور بعد أن أصم عنه أذنيه، ولم يستجب لتوسلاته المتتاليـة، كـان لحرف "الباء" حضور واضح فى إبراز هذه المشاعر فى قوله:

بنـى جهـور أحـرقتم بجفـائكم ∴ ضـميرى فمـا بـال الحـدائق تعبـق؟
تعـدوننى كالمنـدل الرطـب إنمـا ∴ تطيـب لكـم أنفاسـه حـين يحـرق[2]

فقد سيطرت الحروف الانفجارية البائية على الأبيـات باعتبـار أن حـرف "الباء" من الحروف الشديدة المجهورة، والتى تحدث انفجارا عنيفًا ينطلـق مـن الشفتين عند النطق بها، وقد وافقت شدة هذا الحرف حالة الغضـب، والاسـتياء الشديد الذى يشعر به الشاعر تجاه حاكمـه، وعبـرت عـن نفسـية المقهـورة

---

(١) ديوان ابن زيدون صـ٢٧٦ .
(٢) ديوان ابن زيدون صـ٥٩٠ . المندل: عود طيب الرائحة.

المحطمة، وبخاصة إذا كانت القافية من الحروف الشديدة المجهورة وهو حرف "القاف" الذى أبرز بقوته الانفجارية ثورة مشاعره الحزينة، مستغلا فى ذلك طاقة هذه الحروف وقدرتها على التعبير عما فى نفسه ، ومرونتها فى مشاركته أحاسيسه ٠

الجناس:

وهو من الفنون البديعية اللفظية التى تضفى إيقاعًا موسيقيًا مسموعًا تلذ به الأذن والأسماع، وهو "ما كان تركيب حروف ألفاظه من جنس واحد، وحقيقته أن يكون اللفظ واحدا والمعنى مختلفا"(١) وبذلك يكون الجناس اتفاقا فى اللفظ واختلافا فى المعنى، وهذا الاختلاف يجمعه أمر واحد "وهو العناية بحسن الجرس، ووقع الألفاظ فى الأسماع"(٢) وحسن توزيع هذه الألفاظ المكررة على جسد النص له أثر فعال فى تعدد الدلالات داخل النص، هذا إذا كان يصدر عن طبع وجاء عفوًا، "أما إذا تكلف وتصنع بدا ثقيلا، ورغبت عنه النفوس، وجافته الأذواق"(٣) ٠

هكذا يحدثنا ابن زيدون مفصحا عن مشاعره وأحاسيسه تجاه حاكمه الذى انقلب عليه، وحمله أخطاء لم يجنها ،فيقول:

ما للذنوب التى جانى كبائرها ∴ غيرى يحملنى أوزارها وزرى(٤)

فقد جاء الجناس بإيقاعه المتميز بين قوله: "وِزْر: وَزَر" فالأولى بمعنى الأعباء الثقيلة، والثانية بمعنى الظهير والمعين، وهذا الجناس أضفى رداء من الحزن والألم على النص، وعبر بقوة عن الجو النفسى الذى يعانيه الشاعر، جو الألم والحسرة على ما أصابه٠

كما جانس بين (النَّبل) وهى السهام، وبين (النُّبل) وهى المروءة، فى قوله:

لعمر الليالى إن يكن طال نزعها ∴ لقد قرطست بالنبل فى موضع النبل(٥)

---

(١) المثل السائر لابن الأثير صـ٣٤٢ ٠
(٢) موسيقى الشعر صـ٣٩ ٠
(٣) علم البديع دراسة فنية لأصول البلاغة ومسائل البديع د/ بسيونى فيود صـ٢٧٧ ٠
(٤) ديوان ابن زيدون صـ٢٥٥ ٠
(٥) ديوان ابن زيدون صـ٢٦٣ ٠

فقد ظهر الإيقاع الجناس فـى قولـه: "النبـل: والنبـل" واللفظتـان هنـا متشابهتان نطقا، ولكنهما مختلفتان معنى، فإلى جانب المهمة الموسـيقية التـى أداها الجناس، إلا أنه أفاد أيضا فى توضيح المعنى، حيث أبان الشاعر عن حالته النفسية الأسوانة من مبالغة الحادثات فى رميـه، فأصـابت مقتـل النبـل منـه بسهامها ٠

المماثلة:

وهى من التقابلات اللفظية التى ساقها ابن زيدون لإثراء الجانب الموسيقى فى شعره الاستعطافى، وقد ظهرت فى العديد من نصوص شعره، ومـن أمثلتهـا قوله:

وفـى أم موسـى عـبرة إذ رمـت بـه ∴ إلى الـيم فـى التـابوت فـاعتبرى واسـلى[1]

فقد جاءت المماثلة فى قوله: "عبرة: اعتبرى" ، ولا يخفى ما لهذه المماثلة من جرس موسيقى ، يجعل إيقاع القصيدة حيويًا ونابضًا بالتنـاغم المتواصـل ، وإلى جانب ذلك وافقت المماثلة حالة الشاعر النفسية فـى اخـذ أمـه بالصـبر والاعتبار بأم موسى (عليه السلام) ، وذلك من خلال رقة الجـرس الموسـيقى ، والإيقاع النغمى لحروف اللفظتين مما عمق المعنى، وأعان الشاعر فـى توصـيل مراده للمتلقى ٠

التصريع:

وهو "ما كانت عروضه تابعة لضربه، وتنقص بنقصه، وتزيد بزيادته"[2] ٠

فتكمن أهميته فى أنه ينبئ المتلقى بقافيـة البيـت الأول مـن القصـيدة، وبالتالى بقافية القصيدة كلها ٠

ويتيح التصريع "لصوت الشاعر مركزين يتوقف عنـدهما، وبخاصـة فـى مطلع الإنشاد، وكأنه يعد الآذان لقرار النغم فى القصيدة، ومن ذلك قوله:

مـا علـى ظنـى بـاس ∴ يجـرح الـدهر ويـاس
ربمـا أشـرف بـالمر ∴ ء علـى الآمـال يـاس

---

(١) نفسه صـ٢٦٤ ٠
(٢) العمدة لابن رشيق ١/ ١٧٣ ٠

ولقـــد ينجيـــك إغفـــا ∴ ل ويرديـــــك احـــــتراس[١]

فإلى جانب الإيقاع الجميل الناتج عن التصريع، فإنه يلقى بكـل مشـاعره المتدفقة دفعة واحدة فى الشطر الأول من البيت، فهو لا يسـتطيع الصـبر حتـى يصل إلى آخر البيت ليعبر عن معاناته وآلامه بسبب سهام الدهر المتوالية التـى تجرح ثم تداوى، وقد تفتح باليأس أبواب الرجاء.

فاللفظة المصرعة هى أول ما يلامـس أذن السـامع، ويسـتفز مشـاعره وأحاسيسه، فإذا كانت هذه البدايات قوية الإيقاع ومتينـة المضـمون، اسـتمرت المشاعر والأحاسيس مرتبطة بإيقاع القصيدة ومضمونها.

الطباق:

وهو "الجمع بين الشىء وضده فى كلام أو فى بيت شعر"[٢] وتبرز قيمتـه فى أنه يوضح المعنى ويبرزه، ويحقق ترنيمـة هادئـة قائمـة علـى الثنائيـة المتناقضة، ومن ذلك قوله:

وغـيرك رام العـذر إبـلاغ سمعـه ∴ فصـم وأصـغى للوقيعـة والعـذل[٣]

فقد طابق بين "صم: أصغى" مبينا من خلال هذا التضاد حالة الشاعر مع حاكمـه ابن جهور فقد أصم أذنه عنه، واستمع للحساد والوشادة.

كذلك تبرز معانى التضاد فى قوله:

أنـن زعـم الواشـون مـا لـيس مزعمـا ∴ تعـذر فـى نصـرى وتعـذر فـى خـذلى[٤]

فقد طابق الشاعر بين "نصرى: خذلى" مبينا لحالتين متضـادتين لـه مـع حاكمه ابن جهور، الأولى: حين يستمع الحاكم إلى أكاذيب الوشاة فيقصر فى شـد أزره، والثانية أنه يلتمس الأعذار فى التخلى عن الشاعر.

ومن خلال هذا التناغم الإيقاعى بين طرفى الطباق منح ابن زيدون شـعره تأكيدا وإثباتا لكون لنقيض لا ينجلى إلا باستجلاء صورة نقيضه.

---

(١) ديوان ابن زيدون صـ٢٧٣، ٢٧٤ .
(٢) علم البديع د/ بسيونى فيود صـ١٣٥ .
(٣) ديوان ابن زيدون صـ٢٦٨ .
(٤) نفسه صـ٢٦٨ .

التقسيم الموسيقى:

وهو "تقسيم الكلام قسمة مستوية، تحتوى على جميع أنواعه ولا يخرج منها جنس من أجناسه"(١) ومن أمثلته فى شعر ابن زيدون الاستعطافى قوله متحدثا عن الحالة المزرية التى يعايشها فى سجنه:

ألا هل أتى الفتيان أن فتاهم ∴ فريسة من يعدو ونهزة من يسطو؟
وأن الجواد الفائت الشأو صافن ∴ تخونه شكل وازرى به ربط؟(٢)

فقد برز التقسيم الموسيقى فى وحدات إيقاعية متناغمة، وبخاصة فى الشطر الثانى من كل بيت، حيث يسكت الشاعر قليلا بعد كل وحدة ليتسنى له البدء فى الوحدة الأخرى وهكذا، مما يحدث نسقًا موسيقيًا بين هذه الوحدات، يثرى بها الإيقاع الداخلى للبيت الشعرى، ويرفع قيمته النغمية، ويجعله متميزًا بين أبيات القصيدة.

ففى الشطر الثانى من البيت الأول قسمه الشاعر إلى وحدات نغمية متساوية فى: "فريسة من يعدو، ونهزة من يسطو"، وكذلك فى الشطر الثانى من البيت الثانى فى: "تخونه شكل، أزرى به ربط" أثرت القيمة النغمية للنص، كما ساعدت على إيضاح الشمولية للفكرة التى يريد الشاعر إيصالها إلى أستاذه أبىبكر مسلم بن افلح النحوى، فهو يعلن عن معاناته داخل سجنه، ومدى الهوان الذى يلاقيه بعد أن أصبح فريسة لكل عدو معتد أثيم، وبذا جاء التقسيم ليثرى الإيقاع النغمى داخل النص الشعرى، وليمنحه مزيدا من الحيوية النابضة، التى ترفع من حضور المضمون المراد توصيله للمتلقى.

رد العجز على الصدر:

"وهو فى النظم أن يكون أحد اللفظين المكررين فى آخر البيت والآخر فى صدر المصراع الأول أو آخره، أو صدر المصراع الثانى"(٣) مما يحدث تكرارًا يثرى من موسيقية النص، ويخدم المضمون أيضا، حيث أن هذا الترديد يؤكد المعنى المراد، ويضمن له الاستمرارية فى ذهن المتلقى، ومن ذلك قوله عاتبًا

---

(١) الصناعتين أبى هلال العسكرى صـ٣٧٥ .
(٢) ديوان ابن زيدون صـ٢٨٧ .
(٣) كتاب البديع لابن المعتز صـ ٤٧ .

على سيده وحاكمه ابن جهور بعد أن وضع رسائله الاستعطافية المتتالية فى يد ظالمة غاشمة، غير عابئة بتوسلاته المتوالية:

أفى العدل أن واقتك تترى رسائلى ∴ فلم تترك وضعا لها فى يدى عدل؟(١)

فالتناغم الموسيقى الناتج عن التصدير فى قوله: "العدل" فى الشطر الأول و"عدل" فى الشطر الثانى أعطى البيت الشعرى نبضا إيقاعيا رائعا رفع من قيمته فى الأسماع، ووضح المعنى الذى يريده الشاعر من خلال الترديد لهذه اللفظة، حيث بينت حالة الحزن والألم والمعاناة التى وصل إليها الشاعر حتى أصابه اليأس من استعطاف ابن جهور، هذه الفكرة هى بؤرة الدلالة فى النص، والمرتكز الضوئى الذى عناه ابن زيدون من خلال هذا الترديد، الذى أعطى مساحة زمنية كبيرة تتساوى مع سعة الألم فى نفس الشاعر ، وتتعاضد مع عمق الحزن فى نفسه، ومن هنا جاءت قيمة التصدير فى إبقاء الفكرة مترددة حية طوال البيت الشعرى حتى آخر كلمة به.

التدوير:

وهو "أن يستدعى وزن البيت أن يكون بعض حرف من كلمة فى آخر الشطر الأول داخلة فى وزن الشطر الثانى"(٢) مما يسبغ على البيت "غنائية وليونة، لأنه يمده ويطيل نغماته"(٣)، ومن أمثلة ذلك قول ابن زيدون مصورا واقعه النفسى الأليم بسبب الظلم الذى فرض عليه الإقصاء والبعد، وأحال حياته إلى هشيم:

سقم لا أعاد فيه وفى العا ∴ ند أنس يفى ببرء السقيم
نار بفى سرى على جنه الأم ∴ ن لظاها فأصبحت كالصريم(٤)

فقد جاء التدوير فى كل بيت فى إيقاع متواصل ينتظمه كله فى حزمة موسيقية واحدة ، هذا التواصل توافق من الحالة النفسية المضطربة للشاعر، وتدفق مشاعر الأسوانه، كذلك أدى هذا التتابع لعدم تمكين الشاعر من التقاط أنفاسه، أو التريث حتى ينتهى من الشطر الأول فى كل منهما، بل خرجت هذه

---

(١) ديوان ابن زيدون صـ٢٦٧ .
(٢) موسيقى الشعر بين الثبات والتطور د/ صابر عبدالدايم صـ١٧٢
(٣) قضايا الشعر المعاصر نازك الملائكة صـ١١٢ .
(٤) ديوان ابن زيدون صـ٢٨٣ .

الأنفاس متتابعة، محملة بمشاعر الألم دفعة واحدة، ومعبرة بذلك عن اضـــطراب الشاعر وقلقه النفسى ٠

ومن خلال ما سبق يتضح لنـــا كيـــف أن الموســـيقى بشـــقيها الخـــارجى والداخلى لعبت دورا مهما فى بنية النص ، فالموسيقى الخارجية شـــكلت الإطـــار الذى مكنه من احتواء المضامين ضمن تفاعيله، والتى تفاعلت فى انسجام تـــام، محدثة تواؤما بين مساحة التفاعيل ومساحة المشاعر النفسية فى وجـــدان ابـــن زيدون، أما الموسيقى الداخلية فقد برز دورها حين تعاضدت مع المضامين التـــى حوتها أشعاره الاستعطافية، فقدمها للمتلقى بأبهى حلة من جراء التناغم الـــداخلى والانسجام الإيقاعى٠

الخاتمة

نحمد الله على جزيل إحسانه ، ونستمد منه التوفيــق والتأييــد، ونصــلى ونسلم على خاتم أنبيائه ، وعلى من اقتدى بسنته ، واهتدى بهداه٠

وبعد:

فمن خلال مصاحبتنا فى هذه السياحة المشوقة للشاعر المرزأ ابن زيــدون فى شعره الاستعطافي ،ومايحمله من دلالات نفسية عميقة ، وقيمة أدبية رائعــة، وبراعة فنية ممتعة ، وعواطف شجية متألمة ، يحسن بى أن أشــير إلــى أهــم النتائج التى تضمنها هذا البحث إثر هذه السياحة ، وتتمثل فيما يلى:

- أن الاستعطاف موجود فى الشعر العربى منذ القدم ، فما من عصر من العصور إلا وفيه شاعر أو أكثر نظم الشعر استعطافًا واعتذارًا ، عما تورط فيه من إساءة أومانسب إليه زورا٠
- توصل هذا البحث إلى أن أول من افتتح هذا اللون هو الشاعر علقمة الفحل فى استعطافه للحارث الغسانى، إلا أن شعره لم يلق من الذيوع والانتشار مالقيه شعر النابغة الذبيانى ، مما جعل النقاد يقدمون النابغة عليه فى هذا الميدان٠
- كانت السمة الغالبة على الأشعار الاستعطافية فى العصور التى سبقت عصر ابن زيدون ، استعطاف الحاكم٠
- جاء شعر ابن زيدون الاستعطافى متنوعًا بين التصريح والتلميح ، إما عن طريق مخاطبة الحاكم مباشرة ،أوبمخاطبة الأصدقاء طلبًا للتوسط بينه وبين الحاكم٠
- تقلب ابن زيدون فى أشعاره الاستعطافية بين الخنوع والخضوع تارة، والتمرد والاستعلاء تارة أخرى، معبرًا بشاعرية متدفقة، ومشاعر متألمة ، عن ذاته المنصهرة بنار التجربة القاسية٠

- كان اعتداده بنفسه، وفخره بأدبه، وإدراكه لمزاياه، سببًا فى إخفاقه فى استمالة قلب أميره ، واستدرار عطفه، حيث كان الأمير يرى فيه إنسانًا ماكراً لاتخدعه منه كلمات الإطراء ، مما عجّل ذلك بفراره من سجنه.
- التمس ابن زيدون فى أشعاره الاستعطافية العون من الطبيعة بكل مظاهرها ، بعد أن شعر بأنه يغازل المستحيل فى غزو قلب الأمير ، وذلك عن طريق التشخيص الذى أحال المادى إلى مستوى الأحياء فى الحركة والسلوك، مما يدل على شعور مثقل بالهم والحزن.
- كان التبدل من جهة الأصدقاء سببًا فى ألم ابن زيدون النفسى وشقائه الروحى ، مبعثه التباين بين حياة العز سابقًا ،وحياة التمرغ فى المذلة والمتربة لاحقًا.
- اتخذ ابن زيدون لنفسه معجمًا شعريًا خاصاً ، متنوعاً فى أبعاده ورؤاه ، وألفاظه وتراكيبه، أراد من خلاله أن يلوح به للمتلقين عن مقدرة شعرية فذة، وبراعة فى الصياغة الفنية التى احتوت العمق النفسى لتجربته الاستعطافية.
- جاءت ألفاظه الموحية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بشخصيته ، وروحه وحالته النفسية، مما أكسب النص الشعرى قوةً وعنفواناً، وحلّق بنا فى آفاق أوسع وأرحب.
- تميزت التراكيب الشعرية المكونة لبنية نصوص شعره الاستعطافى بإضاءاتها المفرداتية أولاً، ثم امتدادها إلى إضاءة الجملة كلها.
- كثرت ظاهرة التكرار فى شعره الاستعطافى ، مما أشبع دوائر الخطاب الشعرى بظاهرة الترديد اللفظى ، الذى أثرى دلالات النص، وعمق معانيه وإيحاءاته ، وكان بمثابة صدى يتردد فى جنبات قصائده ، فيمنحها إيقاعاً متناغماً ، يبرز الأبعاد الدلالية للألفاظ المترددة.
- غلبت المتناصات من الموروث الدينى على غيرها من أنواع التناص فى شعره الاستعطافى، وذلك لسيطرة القيم الإسلامية على ذهنه ، فأثْرت مخزونه اللغوى، ووجد فيها ثراء فى الألفاظ والمعانى.

- لم يكن التناص القرآنى هو المسيطر الوحيد على شعره، فقد وظف فى شعره أيضا التناص التاريخى، والتناص الأدبى، تخفيفاً من جمود فكرته، وتقويتها فى ذهن المتلقى، وتطويرًا لأشعاره لأنها هى الأساس الذى ينطلق منه الشاعر فى سبيل اتضاح تجربته الإبداعية.
- كانت الصورة أداة فاعلة فى شعره الاستعطافى، وقد تنوعت بين التقليدية، والتشخيصية ، والكنائية ، والمبتكرة ، واللونية ، التى حاكت واقعه المتردى، فى نسيج صورى متكامل انصهرت خيوطه فى بوتقة التشكيل الجمالى ، فامتازت بجودة الأداء ،ودقة التصوير .
- استطاع ابن زيدون ببراعة فائقة أن يلائم بين عواطفه وانفعالاته، والبحورالتى صبّ فيها هذه الانفعالات حسب حالته النفسية والظروف المحيطة به ، فتراوح ذلك بين النفس الهادىء ، وبين النفس السريع اللاهث.
- اعتمد على توظيف الحروف فى تشكيله الموسيقى للتعبير عن مشاعره ، ومعاناته النفسية فى شعره الاستعطافى، مستغلاً طاقة هذه الحروف ، وقدرتها على التعبير عما فى نفسه ، ومرونتها فى مشاركتها لمحنته .
- هذا عن النتائج ، وأما التوصيات فإنها تتمثل فى ضرورة التصدى لإبراز التجارب الإبداعية لدى الشعراء ، وبيان الروافد التى غذتها ، ومصاحبتهم فى أفراحهم وأتراحهم من خلال هذه التجارب ، فهناك الكثير من شعراء الأندلس الذين أصابتهم المحن، وتوالت عليهم النكبات ، فجعلوا من أشعارهم معيناً لهم فى محنتهم ، ومتنفساً يعبر عما يجيش فى صدورهم ، لذا فهم فى حاجة ماسة لمن يهتم بنتاجهم الشعرى، ويخرج به إلى النور، لما فيه من العبقرية النادرة ، والشاعرية المتدفقة ، التى تغرى بالبحث والدراسة.

وأخيرا لاأزعم أن هذا البحث برىء من العيوب والمآخذ ، ولكن حسبى أننى أخلصت النية ، وأضفت لبنة جديدة فى صرح مكتبة الدراسات الأندلسية، فإن فاتتنى الغاية فلم يفتنى شرف السعى إليها والله ولى التوفيق .

ثبت المصادر والمراجع

أولا: (الكتب)

القرآن الكريم٠

١ – أبو فراس الحمدانى الموقف والتشكيل الجمالى – د.النعمان القاضى– دار الثقافة – القاهرة – سنة١٩٨٢م٠

٢ – أسد الغابة فى معرفة الصحابة – ابن الأثير الشيبانى – نشر إسماعيليان – طهران – د. ت –٠

٣ – أسرار البلاغة– عبدالقاهر الجرجانى – تحقيق د. محمد عبدالمنعم خفاجى – مكتبة القاهرة – القاهرة – د.ت – ٠

٤ – الأسر والسجن فى شعر العرب– د. أحمد مختار البرزة –بيروت– ط سنة ١٤٠٥هـ٠

٥ – الأصوات اللغوية – د. إبراهيم أنيس– مكتبة الأنجلو – القاهرة – ط سادسة – سنة ١٩٧١ م ٠

٦ – الإطار الموسيقى للشعر وملامحه وقضاياه– د.عبدالعزيز نبوى– مطبعة حسان – القاهرة– ط سنة١٩٨٦م٠

٧ – الأعلام – خير الدين الزركلى – ط بيروت– ط ثالثة ٠بدون٠

٨ – الأغانى– أبى الفرج الأصفهانى – ط دار إحياء التراث –بيروت.

٩ – البداية والنهاية – ابن كثير الدمشقى – تحقيق أحمد محمد أبو ملحم وزملائه – القاهرة – ط دار أم القرى – بدون ٠

١٠ – بناء القصيدة العربية الحديثة – د. على عشرى زايد– مكتبة دار العلوم – القاهرة– سنة١٩٧٩م٠

١١ – البيئة الأندلسية وأثرها فى الشعر عصر ملوك الطوائف – د.سعد شلبى– ط دار نهضة مصر للطباعة والنشر– بدون٠

١٢ – تاريخ الأدب العربى – العصر العباسى الثانى – د.شوقى ضيف– ط دار المعارف –القاهرة– ط ثامنة – سنة١٩٩٢م٠

١٣ – التجديد الموسيقى فى الشعر العربى– د.رجاء عيد – ط منشأة المعارف– الإسكندرية – سنة١٩٨٧م٠

١٤ – التفسير النفسى للأدب – د. عز الدين إسماعيل – مكتبة غريب – القاهرة– ط رابعة – سنة١٩٨٤م٠

١٥ – تمهيد فى النقد الحديث – روز غريب– دار المكشوف– بيروت – سنة١٩٧١م٠

١٦ – الجامع فى تاريخ الأدب العربى – حنا الفاخورى – المكتبة البوليسية – بيروت– د.ت٠

١٧ – الحضارة العربية الإسلامية فى الأندلس– د. سلمى الجيوشى– مركز دراسات الوحدة العربية – بيروت– ط أولى– سنة ١٩٨٨م٠

١٨ – ديوان أبى تمام – شرح الخطيب التبريزى – تحقيق محمد عبده عزام – دار المعارف– القاهرة– ط خامسة٠

١٩ – ديوان أبى الطيب المتنبى– شرح العكبرى – ط دار المعارف–بيروت٠

٢٠ – ديوان أبى فراس الحمدانى – شرح خليل الدويهى– ط دار الكتاب العربى– بيروت– ط ثانية – سنة١٩٤٤م٠ وط السليمانية – بيروت٠

٢١ – ديوان البحترى – ط الجوائب– قسطنطينة ٠

٢٢ – ديوان الحطيئة – عناية وشرح حمدو طماس ـــ دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت لبنان – ط ثانية – سنة٢٠٠٥م٠

٢٣ – ديوان ابن الرومى – تحقيق د. حسين نصار– ط دار الكتب – سنة١٩٧٩م٠

٢٤ – ديوان ابن زيدون ورسائله– شرح وتحقيق د.على عبدالعظيم – دار نهضة مصر للطبع والنشر– القاهرة – د.ت٠

٢٥ – ديوان كعب بن زهير– صنعة السكرى– ط دار الكتب–القاهرة – ط ثالثة– ٢٠٠٢م ٠

٢٦ – ديوان النابغة الذبيانى– شرح حمدو طماس – ط دار المعرفة– بيروت– ط ثانية – سنة ٢٠٠٥م ٠

٢٧ – الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة – ابن بسام الشـنترينى- القسـم الأول /المجلد الأول- تحقيق د.إحسان عبـاس- ط دار الثقافـة – بيـروت- سنة١٩٧٨م٠

٢٨ – رايات المبرزين وغايات المميزين- ابن سعيد الأندلسى – تحقيق النعمان عبدالمتعال- مطابع الأهرام – القاهرة- سنة١٩٧٣م٠

٢٩ – السيرة النبوية– ابن هشام المعافرى- شرح وتحقيـق مصـطفى السـقا وآخرون – مطبعة مصطفى الحلبى – مصر سنة١٩٣٦م٠

٣٠ – شرح تحفة الخليل فى العروض والقـوافى- عبـد الحميـد الراضـى – مؤسسة الرسالة – بغداد – ط أولى- سنة١٩٧٥م٠

٣١ – شعر الأحوص – جمع عادل سليمان جمال- مكتبة الخانجى – القاهرة – ط ثانية- سنة١٩٩٠م٠

٣٢ – الشعر العربى المعاصر قضاياه وظواهره الوضعية والفنية- د. عز الدين إسماعيل- المكتبة الأكاديمية – القاهرة- سنة١٩٩٢م٠

٣٣ – الشعر كيف نفهمه ونتذوقه – اليزابيث درو- ترجمة سلمى الخضـراء- نشر دار اليقظة العربية- بيروت – سنة١٩٦٣م٠

٣٤ – الصلة – ابن بشكوال– الدار المصرية للتـأليف والترجمـة– ط أولـى – سنة١٩٦٦م ٠

٣٥ – الصناعتين – أبو هلال العسكرى – تحقيق د. مفيد قميحة – دار الكتـب العلمية- بيروت- سنة ١٩٨٤م٠

٣٦ – الصورة الشعرية فى الكتابة الفنية- صـبحى البسـتانى- دار الفكـر – بيروت – سنة ١٩٨٦م٠

٣٧ – الصورة الشعرية والرمز اللونى – يوسف نوفل- دار المعارف – القاهرة – سنة ١٩٩٥م٠

٣٨ – الصورة فى شعر الديوانيين – د.محمد على هدايـة- المطبعـة الفنيـة- مصر – ١٩٨٤م٠

٣٩ – طبقات فحول الشعراء- ابن سلام الجمحى – شرح محمود محمد شاكر – ط الهيئة العامة لقصور الثقافة٠

٤٠ – علم البديع دراسة فنية لأصول البلاغة ومسائل البديع- د.بسيونى فيود – الإحساء للنشر والتوزيع – ط ثانية- سنة١٩٩٨م٠

٤١ – علم القافية – د.وفاء خلوصى – مطبعة المعارف – بغداد- سنة ١٩٦٣م٠

٤٢ – العمدة – ابن رشيق القيروانى – تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد- ط دار الجيل- بيروت – ط خامسة ١٩٨١م٠

٤٣ – الفن ومذاهبه فى النثر العربى – د.شوقى ضيف- دار المعارف- القاهرة- ط رابعة – سنة١٩٦٥م.

٤٤ – فنون الشعر فى مجتمع الحمدانيين – د.مصطفى الشكعة- مطبعة المعرفة- مصر- سنة١٩٥٨م٠

٤٥ – فى الأدب الأندلسى – د.جودت الركابى- ط دار المعارف – مصر – ط ثانية ١٩٦٦م٠

٤٦ – فى النقد الأدبى – د. شوقى ضيف – دار المعارف – مصر- ط خامسة – د.ت ٠

٤٧ – قراءة الشعر وبناء الدلالة – د. شفيع السيد- دار غريب للطباعة والنشر- القاهرة – د.ت ٠

٤٨ – قضايا الشعر المعاصر- نازك الملائكة – دار العلم للملايين –بيروت – ط سابعة- سنة١٩٨٣م٠

٤٩ – قلائد العقيان – ابن خاقان – ط بولاق ٠

٥٠ – كتاب البديع – عبدالله بن المعتز- تعليق ونشر أغناطيوس كراتشكوفسكى – دار الميسرة – بيروت – ط ثالثة – سنة ١٩٨٢م٠

٥١ – كتاب القوافى – أبو على التنوخى- تحقيق عونى عبدالرءوف – مكتبة الخانجى – القاهرة- ط ثانية سنة ١٩٧٨م٠

٥٢ – اللغة الشاعرة – عباس محمود العقاد – منشورات المكتبة العصرية – بيروت- د.ت٠

٥٣ – لغة الشعر العربى – د. عدنان قاسم– دار الفلاح – الكويت –سنة ١٩٨٩م٠

٥٤ – لغة الشعر العربى الحديث– د.السعيد الورقى – دار النهضة – بيروت – ط ثالثة – سنة ١٩٨٤م٠

٥٥ – اللغة الفنية – د محمد حسن عبدالله – دار المعارف – القاهرة – سنة ١٩٨٥م٠

٥٦ – المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر– ابن الأثير– تحقيق د.أحمد الحوفى ، د. بدوى طبانة– دار نهضة مصر للطباعة والنشر– القاهرة – د.ت ٠

٥٧ – مجمع الأمثال – الميدانى– تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم– دار الجيل – لبنان– ط ثانية – سنة١٩٧٨م٠

٥٨ – محاضرات فى شعر على محمود طه– نازك الملائكة– معهد الدراسات العربية – القاهرة – سنة ١٩٦٥م٠

٥٩ – المستطرف من كل فن مستظرف – الأبشيهى – تحقيق سعيد محمد اللحام – عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت – ط أولى– سنة ١٩٩٩م٠

٦٠ – المطرب من أشعار اهل المغرب– ابن دحية– تحقيق إبراهيم الإبيارى،د.حامد عبدالمجيد،د.أحمد أحمد بدوى، راجعه د.طه حسين– ط دار الكتب المصرية القاهرة – سنة١٩٩٧م.

٦١ – معجم الأدباء – ياقوت الحموى– تحقيق أحمد فريد الرفاعى– مكتبة عيسى البابى الحلبى– سنة١٩٣٦م.

٦٢ – المغرب فى حلى المغرب – ابن سعيد – تحقيق د. شوقى ضيف– ط دار المعارف القاهرة سنة١٩٦٥م

٦٣ – مفهوم الشعر دراسة فى التراث النقدى – د.جابرعصفور– دار التنوير– بيروت – ط ثانية – سنة١٩٨٢م٠

٦٤ – مقدمة ديوان الحماسة – المرزوقى– تحقيق أحمد أمين، وعبد السلام هارون– لجنة التأليف والترجمة– ط أولى –سنة١٩٥١م٠

٦٥ – مقدمة ديوان ابن زيدون- نديم مرعشلى – ط الشركة اللبنانية – بيروت – د.ت ٠

٦٦ – ملامح الشعر الأندلسى – د.عمر الدقاق – دار الشروق –بيروت – ط أولى- سنة ١٩٧٥م٠

٦٧ – منهاج البلغاء وسراج الأدباء- حازم القرطاجنى- تحقيق محمد الحبيب الخوجة – دار الكتب الشرقية- تونس- سنة١٩٦٦م٠

٦٨ – موسيق الشعر- إبراهيم أنيس- دار القلم – بيروت- ط رابعة – سنة١٩٧٢م.

٦٩ – موسيقى الشعر بين الثبات والتطور – د.صابر عبدالدايم – دار الأرقم – الزقازيق – سنة ١٩٩١م٠

٧٠ – موسيقى الشعر العربى- د.حسنى عبدالجليل يوسف – الهيئة المصرية العامة للكتاب- سنة١٩٨٩م٠

٧١ – نظرية البنائية فى النقد الأدبى د. صلاح فضل – مكتبة الأنجلو المصرية – القاهرة – سنة١٩٧٨م٠

٧٢ – نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب- المقرى- تحقيق د.إحسان عباس- دار صادر بيروت- سنة١٩٩٨م.

٧٣ – نهاية الأرب فى فنون الأدب – النويرى- المؤسسة العامة للتأليف والترجمة والنشر والطباعة – د.ت ٠

٧٤ – نوابغ الفكر العربى – ابن زيدون- د.شوقى ضيف – دار المعارف – ط خامسة – د.ت ٠

٧٥ – الوافى فى العروض والقوافى – الخطيب التبريزى- تحقيق عمر يحيى ، وفخر الدين قباوة – دار الفكر – دمشق – ط ثالثة- سنة ١٩٧٩م٠

٧٦ – واقع القصيدة العربية د. محمد فتوح أحمد – ط دار المعارف – مصر- ١٩٨٤م٠

٧٧ – وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان – ابن خلكان- تحقيق د.إحسان عباس- دار صادر بيروت – د.ت ٠

ثانياً: (المعاجم العربية)

٧٨ - القاموس المحيط للفيروزآبادى- مؤسسة الرسالة – دار الريان للتـــراث- ط ثانية – سنة١٩٨٧م٠

٧٩- المعجم الوسيط - مجمع اللغة العربية- إشراف عبدالسلام هارون- مطبعة مصر القاهرة – سنة ١٩٦٠م.

٨٠- المفردات فى غريب القرآن - الراغب الأصفهانى - دار الخلود للتراث٠

ثالثاً : (المخطوطات)

٨١- الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية – مجيد عبدالحميد ناجى-رســـالة دكتوراه- كلية دار العلوم – جامعة القاهرة سنة١٩٧٨م٠

٨٢- الشعر الفلسطينى المعاصر – عبدالخالق العـــف – رسالـــــة دكتـــوراه – جامعة عين شمس – القاهرة- ١٩٩٩م٠

٨٣- لغة الشعر العراقى المعاصر - عمران الكبيسى – رسالة ماجستير – كلية دار العلوم – جامعة القاهرة - سنة ١٩٧٩م٠

رابعاً: (الدوريات)

٨٤- تشكيل الصورة فى شعر زهير بن أبى سلمى – د. عبـــدالقادر الربـــاعى – مجلة كلية الآداب – جامعة الملك سعود – عـــدد٢ / مجلـــد ١١- ســـنة ١٩٨٤م٠